

5 me Année, No. 227

Lundi - 8 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٥ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٨ نوفبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

سـوريـة !

للدكتور عبد الوهاب عزام

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة، والجنات الناضرة، والمياه الثارّة!

سورية مراح الفؤاد، ونُزهة الطرْف!

سورية الكادحة التي يجهد أهلها في السهل والجبل يُخرجون بالماء القليل شتى الثمرات، وينبتون به يانع الجنات، سوريةُ برَدَى والعاصي!

سورية الصابرة التي وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات، المجاهدة التي تجادل عن نفسها، وتجاهد عن شرفها، دفاعَ البطل الأصْيد الأعزل، يمضي بجنانه ويده يشق الأهوال إلى غايته، ويحطم الخطوب إلى طلبته، مجاهداً مثابراً، مرزّأً صابرا

سورية التي لم تجف فيها دماء الشهداء، ولم تنقطع سلسلة النوائب!

سورية التي تفيض بالذكر الجيدة، والسير الخالدة، وتمتّ بالرحم الواشجة، والقُربى الواصلة، والجوار والذمام!

الفهـــرس

٩٠٤٦

سورية الجميلة الحبيبة ، الكادحة المجاهدة الصابرة ، فجئها السيل كقطع الليل ، ودهمها القضاء من السماء ، فاستحالت جبالها أنهارا ، وسهولها بحارا ! طغى السيل بالناس والدواب ، وجرف القرى والضياع ، وذهب بالزروع والثمار

فهذه جثث الغرقى منثورة فى السهول ، وأنقاض الدور تغص بها الأودية ، وتحت الماء والطين عتاد البائسين ، وذخيرة المساكين ، وما أبقت الأزمات ، من ثياب وأقوات . فانظر إلى الشمل المبدد ، والأمل المخيب ، والهلع والفزع ، والفاقة والجزع ! أنظر إلى الدموع الجارية ، والنظرات الهالعة ، والخدود الضارعة ، والعقول الذاهلة ، والقلوب الحائرة ، واستمع زفرات الأحياء على الأموات ! وبكاء الأولاد أو نحيب الآباء والأمهات ! استمع فكم أنة كليم ، وآهة يتيم !

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خليق أن يكون مجرى الدمع ؛ ويذكر قول أبى العلاء :

ليت دموعي بمنى سيّلت ليشرب الحُجاج من زمزمين

لك الله يا سورية ! تركتك منذ قليل تعانين ما تعانين ، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما نؤمل من انتعاشك ، وما نرجو من نهوضك ، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة . ولكن فى صبرك وجهادك عزاء ، وكل غمرة إلى انجلاء ؛ وإن وراء هذا الظلام لفجرا ، وإن مع العسر يسرا

***

هذه سورية فى نكبتها ؛ فمن ندعو لنجدتها ؟ إن ندعُ العرب فأهل النجدة ، وأولو الحمية ، وحفظة الجوار ، ورُعاة العهد ؛ فى قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء ، وفى قرابتهم العاطفة عزاء ، وفى أيديهم السخيّة ما يخفف البلاء . وهم للبائس خير وزر ، وللاجىء أمنعُ عَصَر

وإن ندع المسلمين والنصارى فالدين يأمرهم بالتراحم ويحفزهم إلى المواساة ؛ وإن لإخوانهم فيهم لنُصراء رحماء يجيبون دعوة المضطر ، ويمسحون دمعة المحزون ، ويفرجون كربة المكروب ، أن عليهم أن يمسحوا على هذه القلوب الدامية ، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية

بل أدعو البشر أجمعين والانسانية كلها دعوة عامة شاملة ، وأستنجد القلوب الرحيمة لا أستثنى أحداً ، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف التى يعوزها القوت واللباس والمأوى

يا معشر الكتاب والشعراء ! كيف تقسو فى هذه المحنة القلوب ، وتجمد فى هذه الكارثة الدموع ، ويصمت فى هذه الفاجعة البيان ، ويخذُل القلم واللسان ؟

إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات ، وللدمار آيات ، وللشعر مقالاً ، وللبيان مجالاً

دمشق العظيمة تستغيث ، والمعرة الخالدة تستنجد ؛ فيا أدباء العربية والاسلام ! أحيوا الهمم واشحذوا العزائم . ويا أحباء أبى العلاء ! هذا شيخ المعرة فى بيانه ، يستنجدكم لجيرانه :

يقول :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعـمة قوم عليهم النعماء ؟

ويقول :

من حاول الحزم فى إسداء عارفة
فليُلقها عند أهل الحاج والشُكر
ومن بغى الأجر محضاً فلينادِ لها
برّا فقيراً وإن لاقاه بالنكر

فالقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشكرُ تجمعوا الحزم والخير فى مكرمة . ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل . واستمعوا إليه يقول :

إذا طرق المسكين دارك فاحبُه
قليلاً ولو مقدار حبة خردل
ولا تحتقر شيئاً تساعفه به
فربّ حصاة أيّدت ظهر مجدل

عبد الوهاب عزام

المزاح البـــارد

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لنا فى المدرسة الابتدائية مدرس لا نراه إلا معبّساً — لا يفتر له ثغر ولا تنبسط له أسارير وجه ، ولا تلمع عيناه بنور البشر ، لفرط ما نزوى ما بينهما ، ولـكنه على هذا كان لا يكف عن ركوب زملائه المدرسين ورئيسه الناظر أيضاً بالدعابة التى تجىء أحياناً خفيفة محمولة ، وسائغة مستظرفة ، وأحياناً أخرى تكون سمجة ثقيلة لا تطاق . فمن لطيف مزحه أن العادة جرت فى المدارس بأن يصوّر التلاميذ مع أساتذتهم فى آخر العام المدرسى لتبقى الصور ذكرى لعهد التعلم فصففنا أمام المصور — القصار من أمثالى فى الصدر ، والطوال وراءهم ، وجلس المعلمون على كراسى أعدت لهم أمامنا وجىء بكرسى كبير ذى مسندين للناظر ، وكان رجلاً جهولا ولـكنه طيب القلب ، وجعل صاحبنا يروح ويجىء هنا وههنا ليسوى الصفوف كما يزعم ، ويقدم واحداً ويؤخر آخر ، ويقبل ويدبر ، والناظر قلق يصيح به : « اخلص بقى يا فلان افندي » فيقول : « حالا . حالا . إن الله مع الصابرين » ويمضى فيما هو فيه من التسوية والتعديل . وكانت العادة أيضاً أن توضع خلف الصفوف خريطة أو مصور جغرافى كبير فادعى أنه نسي ذلك وذهب يعدو إلى حجرة المدرسين ثم عاد يحمل مصوراً ملفوفاً وعلقه وأبقاه مطوياً ثم صاح بنا : « الآن انظروا كلـكم إلى عدسة المصور » ففعلنا ونشر هو المصور الجغرافى وأخذت الصورة فطوى الخريطة وحملها وذهب بها فأعادها إلى حيث كانت ، وجاءت الصور وأدى كل من رغب فى الاحتفاظ بنسخة منها الثمن المفروض ومضى بها إلى بيته فرحاً مسروراً . ثم تأملناها على مهل في البيوت فاذا مكتوب وراءنا بالخط الثلث : « حيوانات الدنيا » ، ولا أحتاج أن أقول أن معلمنا نشر خلفنا مصوراً لحيوانات الأرض من أبقار وجاموس وحمير وخيل وأسود وفيلة الخ لا للـكرة الأرضية وقاراتها ...

ومما أذكره فى باب المزاح العملى أن واحداً من أصدقائى كاد مرة يخرب بيتى ، فقد زارنى فلم يجدنى وكنت يومئذ فى بيت عتيق له فناء رحيب ، فوقف يصفق وينادى ، فلما قالوا له إنى خرجت قال: «سبحان الله العظيم وهل هذا كلام ؟ يُشَبُّك بنات الناس ويهرب ؟ »

وعدت إلى البيت وأنا خالى الذهن مما حدث ، فلما دخلت على أهلى قلت : « السلام عليكم » كما هى عادتى فرأيت أمي تنظر إلىّ مقطبة ثم ترخى عينها إلى الأرض ، فالتفت إلى زوجتى فاذا هى تنظر إلى الحائط ولا تحول عينها عنه ، كأنما عليه رسم ساحر ؛ فاستغربت وأنكرت هذا الاستقبال الحافل بالنذر ولـكنى آثرت التباله ، وأقبلت على أمى أريد أن أقبل يدها فتناولتها فنزعتها بعنف وحولت وجهها عني والدمع متحير في مآقيها فزاد عجبى وقلت : « مالكم ... جرى إيه ؟ » فصاحت أمى بى : « رح .. رح إلى حيث كنت

ووجدت زوجتى لسانها فقالت : «أيوه رح إلى حيث كنت»

فتأملتها ملياً وأنا أحك رأسى وأحاول أن أهتدى إلى سر هذا اللقاء الغريب فلم يفتح الله على بشىء ، فقعدت أمامهما وجذبت وجهيهما إلىّ وقلت : « خبرانى ما هى الحكاية فما أعرف شيئاً أستحق من أجله أن ألقى منكما هذه الجفوة »

فأفصحت أمى قليلا وقالت : « شف بنات الناس ... »

فقاطعتها : « بنات الناس ؟ أى بنات وأى ناس ؟

قالت : « هل خطبت ؟ »

فوثبت إلى قدمى وصحت : « خطبت ؟ .. خ .. خ .. »

فقالت زوجتى : « ألا ترين كيف يتلعثم ؟ إن هذا إقرار »

فصرخت وأنا أكاد أجن : « أى إقرار ياستي ؟ أين عقلكم يا خلق الله ؟ ألا تـكفى غلطة واحدة ؟ » »

ولا أحتاج أن أقول أيضاً إنى خرجت بحماقتى من ورطة فوقعت فى ورطة . فقـد اقتنعت أمي وزوجتى بأن الزواج من أخرى لم يخطر لى على بال ، وإن هذا كان مزحاً ثقيلاً من صاحبى ولـكن زوجتى ظلت إلى آخر عمرها تذكر قولى : « ألا تـكفي غلطة واحدة ؟ »

***

ومن الفصول الباردة ما حدث مرة فى بيت قريب لنا وكان قد دعانا إلى سهرة فى مصر الجديدة حيث كان يسكن ، وكان بين الضيوف اثنان من المصريين الذين تعلموا في ألمانيا ، فاقترح أحدهما

أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية ، وقال إنها : « تميت من الضحك » وأيد زميله قوله ، فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذي بشرنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور ، ذو لحية كثة ، ووجه رزين ، ونظرة صارمة ، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسي كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يغنيه أو يعزفه . وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التي لا نعرف منها حرفاً . وجلس الرجل إلى البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا — أو على الأقل لي — أن في الأمر ما يضحك ؛ وكان جاداً وكان وجهه ساهيا كأنه يحلم ، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوي فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت : أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة ، وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت ، وإذا ضحكا ضحكت ، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة ؛ ولم أكن وحدي في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلي جهلاء — أعني باللغة الألمانية — وقد خطر لهم كما خطر لي أن يحاكوا الشابين . وكنت ربما عجبت لطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا يرمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذني أحدهما أن هذا هو المضحك .. هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التي يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسي كأني فهمت وازددت اقتناعا بأن الأمر مضحك ولا شك ورحت أقهقه . ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتي كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد ، ولبست ثوب الدعوى العريض الفضفاض

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشرر وخرج مغضباً محنقاً يرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الانكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا ؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يغنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة ، وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح ، فكاد يجن إذ كنا نتلقى ذلك بالهزء والسخرية . وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام — لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة — ولكن المسكين كان قد تعذب ليالي لا ليلة واحدة ..

ابراهيم عبد القادر المازني

إلام يسير العالم ؟

طريق الحرب وطريق السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

إلام يسير العالم ؟ هل يوفق إلى التغلب على أزماته واضطراباته الحاضرة أم يسير حتما إلى حرب جديدة تغمره بالويل ؟ هذا سؤال يتردد اليوم على ألسنة جميع الأمم والافراد ؛ ولكن أشد المتفائلين لا يسعه إلا أن يسلم بأن العالم يجوز حالة من القلق والفوضى لا تبعث إلى الطمأنينة والرضى ، بل نستطيع أن نقول إن العالم يسير اليوم إلى مستقبل محفوف بالنذر والمخاطر ؛ فأينما سرحنا البصر ألفينا الأمم تجيش بالخصومات والمشاكل الداخلية والخارجية وتعاني متاعب العطلة والفاقة والأزمات الطاحنة ؛ وتسودها حالة ظاهرة من القلق والتشاؤم ؛ وفي أمم عدة تقوم نظم عنيفة طاغية تضطرم بروح الثورة على كل النظم والمبادىء القائمة ، وعلى كل العهود الدولية ، وتسحق في الداخل كل الحقوق والحريات العامة وتسلب الفرد كل المزايا والخواص الانسانية ، وتعد الشعوب لمعارك دموية تخوضها في سبيل أحلام ومطامع غامضة من السلطان والسيادة . وفي أكثر من ميدان تضطرم اليوم حروب عنيفة قاسية ، تجني شر الجنايات على شعوب آمنة مسالمة ، وتحصد أرواح البشر بأروع الأساليب والصور ، ولا يجد المضرمون لنارها وازعا يردهم عن جرائمهم لأنهم لا يؤمنون إلا بالقوة الهمجية وخصومهم ليسوا مثلهم على استعداد للالتجاء إليها

هذه هي صورة العالم اليوم ، وهي صورة تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل ، فلم يبلغ العالم منذ الحرب الكبرى ما يبلغه اليوم من الاضطراب والاضطرام والفوضى ؛ وكل ما هنالك يدل على أنه يجتاز مقدمات العاصفة كما كان يجوزها في سنتي ١٩١٣ — ١٩١٤ ، والأسباب تشبه في معظمها تلك التي أدت إلى الانفجار في سنة ١٩١٤ ؛ ذلك أن الحرب الكبرى قامت لعاملين أساسيين هما الخصومات العنصرية والمطامع والمنافسات الاستعمارية ، وتلك الخصومات والمطامع والمنافسات هي التي تثير

اليوم معظم الأزمات الدولية ، وإليها يرجع بالأخص ما يعانيه العالم اليوم من أسباب القلق والاضطراب والفوضى ؛ فالحرب فى الشرق الأقصى بين الصين واليابان ، والحرب الأهلية الاسبانية وما يترتب عليهما من أزمات خطيرة تهدد سلام العالم ؛ والمنافسة الشائكة بين إيطاليا وإنكلترا على سيادة البحر الأبيض المتوسط؛ وما تدعيه إيطاليا وألمانيا كل لنفسها من حقوق استعمارية ، وما يحفزهما إلى المبالغة فى التسلح والاستعداد للحرب : كل ذلك يرجع إلى شهوة التوسع والاستعمار ، وإلى المنافسة الاقتصادية والاستعمارية بين أمم كإيطاليا وألمانيا واليابان ترى أنها حرمت دون حق من نصيبها المشروع فى أسلاب الأمم الضعيفة وميادين الاستعمار الشاسعة وبين أمم مثل إنكلترا وفرنسا تتمتع كلتاهما بأملاك استعمارية ضخمة وموارد اقتصادية عظيمة ، وتحرص كل الحرص على مابيدها من هذا التراث الذى ترمقه الأمم الأخرى بعين الحفيظة والجشع ، وإلى هذا العامل الاستعمارى يرجع أيضا ما تعانيه الأمم المغلوبة من الآلام والمتاعب المادية والمعنوية ؛ فالاضطرابات الدموية التى تجيش بها فلسطين منذ أشهر ، والحركات القومية التى تجيش بها تونس والجزائر ومراكش ، وما تنزله الأمم الغالبة بهذه الأمم المغلوبة من ضروب القمع المنظم احتفاظا بسلطانها وسيادتها ، إنما هى أيضاً وليدة هذه الشهوة الاستعمارية التى لا تخبو ، والتى لا تعرف حقاً ولا عدالة ولا أى إعتبار إنسانى

ولقد كان غزو إيطاليا للحبشة إحدى هذه الفورات الاستعمارية البربرية ، كما كان غزو اليابان من قبل لولاية منشوريا الصينية ، وكما هو اليوم شأنها فى الحرب التي تشهرها على الصين دون رأفة ولا هوادة ؛ ولم يكن موقف الأمم الأخرى بالأمس إزاء الاعتداء على الحبشة ، أو موقفها اليوم إزاء الاعتداء على الصين إلا وجهاً آخر من وجوه المأساة ، فهذه الأمم لا تحاول أن تعترض سبيل الأمم المعتدية لأنها تؤمن دونها بالحق وترغب فى الذود عنه ، ولكن لأنها تخشى أن تظفر الأمم المعتدية دونها بمغانم وأسلاب استعمارية جديدة تزيد فى ثروتها وقوتها وخطرها

هذا عن العامل الاستعمارى ؛ وأما العامل العنصرى فيرجع إليه أيضاً قسط كبير فى إثارة الخصومات والقلاقل الدولية . ولقد كانت الخصومة السلافية الجرمانية من أهم العوامل التى عاونت إضرام نار الحرب الكبرى ؛ أما اليوم فهنا لك الدعوة الآرية أو دعوة الأجناس الرفيعة والأجناس المنحطة التى تشهرها ألمانيا الهتلرية فى وجه العالم ؛ وهنا لك الخصومة الآرية اليهودية التى تذكى ضرامها بكل ماوسعت ؛ ثم هنا لك مشكلة الأقليات القومية التى تتخذ فى أوربا الوسطى صوراً حادة تبث الحقد والحفيظة بين الأمم والعناصر المتجاورة ، وتنذر بتكدير السلم من آن لآخر

بيد أنه يوجد فى المعترك الدولى الحاضر عامل جوهرى آخر لم يعرفه العالم قبل الحرب الكبرى ؛ وذلك هو الخصومة المضطرمة بين جبهتين مختلفتين من النظم والمبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فالنضال بين الفاشيستية والديموقراطية يشغل اليوم فراغاً كبيراً فى المعترك الدولى ، ويثير أزمات دولية خطيرة تنذر بتقويض صرح السلم بين آونة وأخرى . والفاشيستية تذكى الاحقاد القومية والجنسية بصورة عنيفة تثير أعصاب الأمم المختلفة وتحول دون تفاهمها ، وتعمل بكل ما وسعت لتمزيق العهود الدولية ، وتدعيم نظرية القوة الغاشمة ، وجعل الحرب هى المثل الأعلى للأمم ؛ وهي بذلك تحمل أكبر تبعة فى خلق الأزمة الدولية الحاضرة ، وإثارة القلق الذى يساور جميع الأمم ، وتكدير جو السلام ، والتمهيد بحركاتها وتهديداتها العسكرية لجر حرب جديدة تبدو نذرها فى الأفق حيناً بعد حين

***

هذه الصورة المضطربة المروعة لأحوال العالم رسمها الرئيس روزفلت فى خطابه الذى ألقاه أخيراً فى شيكاغو وحمل فيه على « نظم الارهاب والانتهاك » التى فرضتها بعض الحكومات على العالم منذ بضعة أعوام ، وعلى تدخل هذه الحكومات تدخلا غير مشروع فى الشئون الداخلية لبعض الأمم الأخرى ؛ وعلى غزو الأراضى الأجنبية انتهاكاً للمعاهدات والعهود الدولية ؛ وتساءل الرئيس روزفلت : كيف يقال إننا فى أوقات سلم والغواصات تتربص بالسفن الآمنة فتغرقها دون سبب ودون إنذار ، والقنابل تلقى على السالمين الآمنين ومنهم نساء وأطفال أبرياء دون حرب ودون مبرر من أى نوع . هنا لك أمم تزعم أنها تطلب الحرية وتقدسها ولكنها تنكرها على الأمم الأخرى ؛ وهنا لك شعوب بريئة تضحي لتحقيق شهوة سلطان وسيادة لا تبررها أية عدالة

أو أى اعتبار انسانى ؛ ومع ذلك فان هؤلاء الذين يلعبون بالنار ويعملون على تكدير السلم لايبلغون فى رأى الرئيس روزفلت أكثر من عشرة فى المائة من مجموع شعوب العالم . وأما التسعون فى المائة الباقية فهى شعوب ترغب فى السلام ، وتستطيع بل يجب عليها أن تجد الوسيلة لكى تحقق رغبتها فى صون السلام ، وأنه يستحيل عندئذ على أية أمة مسالمة أن تلوذ بالعزلة والحياد من حالة الفوضى والاضطراب الدولى التى يخلقها انتهاك الحقوق

وصوت الرئيس روزفلت هو صوت الأمم الديموقراطية ؛ والدول التى يعنيها ، وهى المنتهكة للحقوق والمعاهدات ، المقدمة على تكدير السلم وعلى الفتك بالآمنين والمسالمين ، هي الدول الفاشستية والاستعمارية ، أوبعبارة أخرى هى ألمانيا وإيطاليا واليابان؛ ولكن الديموقراطية أبدت فى الأعوام الأخيرة كثيراً من ضروب الضعف والتردد ، وبالغت فى التمسك بالألفاظ والوعود ، ولم تحاول أن تؤيد كلمتها بوسائل فعالة إزاء العابثين بالحقوق والمنتهكين لحريات الأمم ؛ واستطاع هؤلاء بما رأوا من احجام الدول الديموقراطية وتخاذلها أن يقدموا على تنفيذ مشاريعهم بجرأة لا مثيل لها ؛ فقد ذهبت الحبشة ضحية لتهاون الديموقراطية ووعودها الخلابة ، واستولت عليها ايطاليا فى غمر النار والدم بينما كانت عصبة الأمم والدول الديموقراطية من حولها تردد أنشودة الحق والمعاهدات والعقوبات الاقتصادية ؛ وذهبت اسبانيا الجمهورية فريسة الدسائس الفاشستية ومازالت تعانى أكثر من عام أهوال حرب أهلية لم تقصدها ، ولم يثر ضرامها ويمدها بالوقود سوى أولئك الذين يرون أن يشقوا إلى أطماعهم طريق النار والدم ؛ وها هي ذي اليابان تتوغل فى الصين وتثخن فى جنباتها وتفني جيوشها وشعوبها دون اعلان حرب ودون مبرر سوى ما ترمى إليه من تحقيق شهوتها الاستعمارية ؛ كل ذلك والدول الديموقراطية تقنع بالاحتجاجات اللفظية وعقد لجان عدم التدخل والمؤتمرات التى لا طائل تحتها

والخلاصة ان الفاشستية المضطرمة تجيش بمشاريعها وتعمل لتحقيق شهوتها فى الاستعمار والسيادة غير مكترثة لما تهدد به سلام العالم من الأزمات والأخطار ؛ ذلك انها لا ترى أمامها سوى طريق العنف والدم ؛ والديموقراطية من جانبها تلوذ بالاحجام والمطاولة وتؤثر التراجع على الاصطدام الخطر ؛ ذلك أنها ترغب عن الحرب وتفتدى سلامها بكل ما وسعت ؛ ولكن النضال يصل اليوم إلى ذروته ، ولا بد أن تضطر الديموقراطية عاجلاً إلى العمل إذا لم ترد أن تفلت القيادة من يدها وتغدو تحت رحمة الفاشستية المتوثبة . فماذا يكون مصير السلام يومئذ ؟ وهل يؤدي الاصطدام إلى الانفجار الخطر ، أم تستطيع الديموقراطية بما تملك من وسائل الضغط المادي والمعنوى أن تقف هذا التيار المتوثب في الوقت المناسب فتنقذ بذلك سلامها وسلام العالم ؟ يقول لنا العلامة فيريرو ، وهو من ثقات التاريخ والسياسة : إن ماتعانيه أوربا الآن من الاضطراب والفوضى يشبه ما عانته منهما على أثر عقد معاهدة فينا عقب سقوط نابوليون ؛ ومعاهدة فرساى تشبه معاهدة فينا فى فساد الأسس والمبادىء التى قامت عليها ؛ وان الأزمات والأخطار العسكرية التى تواجهها أوربا ترجع إلى مايسميه فيريرو « باستعمار الخوف » ؛ فان ايطاليا واليابان تنحدر كل منهما من مغامرة إلى أخرى للاحتفاظ بما كسبته من الأراضي من طريق غير مشروع على نحو ما كان يفعل نابوليون عقب كل انتصار من الاندفاع فى مغامرة جديدة للاحتفاظ بثمرة انتصاره .

ويرى فيريرو أن ألمانيا التى استطاعت حتى الآن أن تجتنب هذه المغامرات يمكن أن تعد عاملاً جوهرياً فى تأييد السلم إذا رأت أن تجانب هذا التيار المتوثب وأن تضع يدها فى يد الديموقراطية الغربية ؛ أما اذا اندفعت ألمانيا فى هذا التيار فويل للسلام عندئذ .

هذا ما يراه العلامة فيريرو ، ونحن معه فى ان الخطر على السلام إنما يرجع بالأخص إلى نزعات الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وان مستقبل السلام منوط بموقف الديموقراطية ، فاذا هي يئست من الحلول والوسائل السلمية ، واستطاعت عندئذ أن تعتزم أمرها ، وأن تقابل الوعيد بالوعيد والضغط بمثله تؤيده استعداداتها ومواردها الضخمة ، فان تيار الفاشستية لا يلبث أن ينكشف ويخبو . وفى رأينا أن الساعة قد حلت لأن تسلك الديموقراطية هذا المسلك ؛ وفى يقيننا انها فاعلة بلا ريب .

(***)

التشريع والقضـــاء

فى العهد الفرعونى

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٣ —

كان يفصل فى القضاءين المدنى والجنائى حتى القرن الثالث عشر ق . م بمصر هيئة واحدة ؛ وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة وهى من الرامسة فصل القضاء المدنى من القضاء الجنائى وأصبح لكل منهما محكمة خاصة به فى الاقليم . وكان يرأس المحكمة المدنية فى طيبة رئيس كهنة (آمن) ويجلس معه عشرة من الكهنة ، أما المحاكم الجنائية فكان يرأسها « دجا » أى ممثل السلطة التنفيذية فى الاقليم ورئيسه ، وكان يساعده موظفان كبيران هما بمثابة محلفين ، ونائب الملك « نم » الذى كان يمثل النيابة . أما الدعاوى المختلطة أى التى تجمع بين طرفين أحدهما مدنى والآخر جنائى فكانت المحكمة الجنائية تنظرها مضافاً إليها ثلاثة قضاة مدنيين يكونون فى الأكثر من رجال الدين . وعند ما تدخل الكهنة فى القضاء فى القرن الحادى عشر ق . م فى عهد الأسرة العشرين زاد نفوذ الإله آمن فاستفتى فى المسائل الجنائية ثم عظم نفوذه بمضى الزمن حتى أصبحت فتاوى آمن فى خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين أحكاماً نافذة فى جميع الأقضية التى تعرض عليه جنائية أو مدنية أو تجارية أو إدارية ؛ فكان يعرض عليه المتهمون ليفصل فى قضاياهم بالوحى المنزل من عنده ، وكان يدير الاجراءات بحضرته رئيس الكهنة فيقدم كتابين أحدهما يثبت البراءة والثانى يقرر الادانة ، فإذا وضع الإله إصبعه على الأول برئ المتهم ، وإذا وضع الإله إصبعه على الثانى أدين . وأحياناً يحضر المتهم أمام تمثال آمن ثم يذكر رئيس الكهنة الوقائع أمام التمثال عند ما ينتهى من ذكر تلك الوقائع يسأل رئيس الكهنة الوثن إن كان المتهم مجرماً أو بريئاً ، فإذا هز الإله رأسه بالنفى برئ المتهم ، وإن هز الإله رأسه بالايجاب اعتبر المتهم مجرماً

قال الأستاذ ارون بيفن فى كتابه «مصر فى عهد البطالسة» عن آمن : « وكان الوثن ككل أوثان التنبؤ مجبولا بحيث يحدث عدداً محدوداً من الاشارات ، فيحرك رأسه أو يلوح بذراعيه أو يشير بيديه ؛ وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذى يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة ؛ وكان الجميع يعرفونه معرفة تامة ، ولكن لم يدر بخلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع فإنه كان عندهم الأداة التى يستخدمها الإله وبالأحرى آلة سيره ، وكان الروح يلبسه فى برهة خاصة ، والروح هو الذى يحرك الصنم ويحرك شفتى الكاهن بما يريد ؛ فالكاهن يعير يديه وصوته ؛ ولكن الإله هو الذى يقدر أعماله ويوحى إليه بما يخرج من كلمات» وإذا كان المتهم غير معروف على وجه التحديد عرض المتهمون جميعاً على تمثال آمن الذى يشير بيده إلى المتهم منهم ، أو يقول عنه مثلا « هذا هو السارق » . فإذا أنكر المتهم ما اتهمه به آمن أعاد آمن اتهامه ، فإذا صمم على الانكار بعد ذلك سيق إلى السجن وهناك يلقى من العذاب ما يجعله يقر بجرمه ، إذ لا يمكن نسبة الكذب إلى الإله آمن . وعند اعترافه بأنه مذنب يساق مرة أخرى إلى آمن الذى يسمع اعترافه ويصادق عليه ، وعندئذ يقدم المتهم للمحكمة الجنائية التى تحكم عليه بالعقوبة نتيجة لهذا الاعتراف . غير أن نفوذ الآله آمن قد ضعف فى عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وهما من اللوبيين وأصبح الرجوع لفتاواه شكلياً بحتاً ، ثم استرد بعض نفوذه بين سنتى ٧٢١ و ٧١٨ ق . م

ولما تبوأ الملك بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين عرش مصر أزال التدخل الدينى وأعطى للقضاء صبغته المدنية السابقة ؛ غير أن استيلاء الأثيوبيين على مصر وانتمائهم لآمن أعاد له سلطته القضائية السابقة ولكنها ضعفت فى عهد الملك أمازيس (أحمس الثانى) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وبذلك قضى على سلطة آمن قضاء مطلقاً ، وأعاد للقضاء صبغته المدنية التى كان عليها زمن الملك بوخوريس فأعاد أمازيس المحاكم الجنائية والمدنية وفق نظام رمسيس الثانى (رمسيس الأكبر) أى إلى ما كانت عليه المحاكم فى القرن الثالث عشر ق . م وبذلك أعيد الاختصاص فى المواد الجنائية إلى محكمة دجا Dja وفى المواد المدنية إلى محكمة القضاة الكهنة كما كان متبعاً من قبل . ولم يحرم أمازيس الكهنة من الفصل فى القضايا المدنية لسببين : أولهما أن

القضايا المدنية تتطلب علماً ومعرفة بالقانون ، والثانى أن هذا العلم وتلك المعرفة لم يتوفرا إلا لرجال الدين إذ ذاك ، ولكن أمازيس ألنى طريقة الفصل فى القضايا بواسطة الوحى الديني ، أما القضاء الجنائى فنظراً لبساطته وسهولته بقي الفصل فى أموره للملك إما بنفسه وإما بقضاة يعينهم

ولقد فصل قدماء المصريين بين وظيفة القضاء ووظيفة الاتهام إذ ظهر منذ الأسرة الثانية عشرة وظيفة لسان الملك وكان شاغلها بمثابة النائب العام فى زماننا ؛ وكانت مهمته أن يباشر التحقيق وأن يقيم الدعوة العامة وأن يأمر بالقبض إن وجد لذلك مسوغاً . وكانت له بجانب وظيفته القضائية هذه اختصاصات أخرى مالية وإدارية . وقد أمكننا أن نعرف وظائفه على وجه التحديد فى عهد الرمامسة أى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وكانوا يسمونه تارة « لسان الملك » وأخرى « فم الملك » وثالثة « زيم » وكما أن للنائب العام فى زماننا وكلاء يباشرون الدعوى نيابة عنه فى الجهات الأخرى المختلفة كذلك كان « للسان الملك » وكلاء يسمون دِنُو Denu فى الأقاليم وكانوا يباشرون الدعوى العامة أمام محاكم الأقاليم الجنائية ، وكان عضو النيابة يدخل فى صميم تشكيل المحكمة الجنائية عادية كانت أم غير عادية . وكان يثابر على حضور الجلسات ، وكان يذكر اسمه عقب القضاة وقبل الكتبة فى محاضرهم ؛ وكان قدماء المصريين يعترفون للمؤسسات الدينية بالشخصيه المعنوية وبذلك سمحوا لها بالتقاضى أمام المحاكم . وكان للمحكوم له أن يحجر على أموال المحكوم عليه . وكان للأفراد حق رفع الجنحة المباشرة إلى المحكمة إذا لم تقم النيابة العمومية أى « لسان الملك » ووكلاؤه برفع دعاويهم

ووجد بكل محكمة قلم لتلقى العرائض وآخر للمحفوظات تحفظ به سجلات الأحكام ، وكانت محاضر جلسات المحاكم الجنائية العادية مكتوبة ومطولة تشمل كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة واستجوابات وشهادة شهود إلى غير ذلك ، وكان يقوم بتدوينها كتبة يدخلون فى تشكيل المحكمة

وقد فطن قدماء المصريين إلى ما فى المرافعات الشفهية من ضرر قد يصيب العدل فى صميمه نتيجة لتأثر القضاة بفصاحة اللسان فمنعوها وجعلوا معظم الاجراءات مكتوبة ؛ وكان للمحكمة أن تنتدب الخبراء لمعاينة مكان الحادث أو لإجراء الكشف الطبي على المجنى عليهم وفحص المتهمين

وقد أشفق قدماء المصريين على قضاتهم من فصاحة المحامى وحسن دفاعه وسحر بيانه وما قد يؤدى إليه ذلك أحياناً من الاغضاء عن الحق والقانون فلم يقروا نظام المحامين عن الخصوم أمام المحاكم واعتقدوا أنه قد يكون فى بلاغتهم وفصاحة لسانهم وحسن منطقهم ما يغشى على الحقيقة فيتأثر القضاة بهم لما فى البيان من السحر . وكانت الطلبات تعرض فى مذكرات ، ولكل من طرفى الخصوم الحق فى الرد عليها كتابة ، فيشرح المدعى دعواه بالتفصيل في عريضة دعواه ويرفق بها كل مستنداته ثم تعرض تلك العريضة على المدعى عليه ليطلع عليها ويرد عليها بمذكرة مكتوبة معترفاً أو منكراً بعض أو كل ما جاء فيها ، ثم تترك الفرصة مرة أخرى للمدعى للرد على ما جاء بمذكرة المدعى عليه ويترك لهذا الأخير فرصة الرد الأخير على المدعى بمذكرة ثانيـة فكان المدعى عليه هو آخر من يقرأ له القاضى وكان يحصل هـذا التبادل فى المذكرات قبل الجلسة . ولا تصدر المحكمة حكمها إلا بعد الاطلاع على المستندات المقدمة من طرفى الخصوم ونظر جميع الأوراق المختصة بالدعوى وتمام المداولة واستشارة قوانين الدولة . وكان التأني فى إصدار الحكم من أهم صفات القضاة حتى لا تجرهم العجلة إلى السقوط فى مهاوى الخطأ . وكانت جلسات المحاكم تعقد علانية ويؤدى الشهود يميناً قبل أداء شهادتهم أمام المحكمة فى الدعاوى الجنائية والمدنية . أما صيغة اليمين فهى « أقسم بآمُن وبالملك أن أقرر الحقيقة ولا أقول كذباً ؛ فلئن كذبت فلتجدعن أنني ولتصلمن أذنى ولأنفين إلى إتيوبيا أو إلى خارج الحدود» ووجدت السجلات العقارية التى كانت تسترشد بها المحاكم إذا فصلت فى نزاع عقارى فإذا شعرت المحكمة بأن المستندات المقدمة من الخصوم والمثبتة للملكية غير كافية لإثبات الحق أمرت بإجراء تحقيق تكميلي تسد به هذا النقص ثم تصدر حكمها مشتملا على خلاصة أقوال الطرفين فى النزاع والأسباب ونص الحكم . أما المحكمة الخاصة التى كانت تنظر فى القضاء الجنائى غير العادى فكانت تصدر حكمها بغير إعلان الأسباب . وكانت التحقيقات فيها سرية ومحاضرها موجزة . وكانت فكرة العقاب عند قدماء المصريين لا تنطوى على

الانتقام الشخصي وكانوا يعتقدون أن حق معاقبة المجرم وتنفيذ العقوبة فيه مفوض إليهم من القوة الإلهية . وقد عرف قدماء المصريين الحبس الاحتياطي وصرحت به قوانينهم

بعض نماذج من التشريعات المصرية المدنية والجنائية في قوانينهم

قلنا إن ديودورس الصقلي امتدح القوانين المصرية ، وقال إنها جديرة بالإعجاب وإن العالم أعجب بها فعلاً . ويؤسفنا أن نقول إن هذه القوانين التي بهرت العالم برقيها والتي غذته بمبادئها مازالت دراستها مهملة في بلادنا . وإنه ليعز علينا أن نعترف بأنه على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية لم نعثر في بحثنا إلا على بعض المصادر الأوروبية والعربية التي بحثت فيها . جمع « تحوت » إله القانون القوانين المختلفة بعد أن وضعها لقدماء المصريين ، وكان ذلك في سنة ٤٢٤١ ق . م ؛ إلا أن هذه القوانين قد بعثرت وشتت أغلبها بعد ذلك ، ولم يتمكن من جمعها إلا الملك بوخوريس الذي عدلها وأفرغها في مجموعة واحدة نظم بها الأحوال الشخصية والمعاملات المدنية . كانت التعهدات على اختلاف أنواعها قبل الملك بوخوريس تحصل مشافهة إذ لم تكن كافة العقود تحصل بالكتابة وإنما كانت تتم بيمين أو « صنك » يصدر من المتعهد للمتعهد له بأنه سيؤدي إليه ما اتفقا عليه ، ثم أطلق لفظ « صنك » بعد ذلك على العقد نفسه . ونحن نرجح بأن لفظ « سند » هي بعينها « صنك » المصرية القديمة . وكان يشترط حضور عدد من الشهود ذكوراً كانوا أم أناثا حتى يمكن إثبات العقد . ولم يكن من الجائز تعدد أحد طرفي العقد عندهم فإذا تعدد اعتبروا شخصاً واحداً ، ويقولون « تكلم فلان وفلان بفم واحد أو بلسان واحد » وكان لا يترتب على العقد إلا التزام من طرف واحد ؛ وكان إذا تخلف المتعهد عن الوفاء بما التزم به أكره على الأداء بالعقاب البدني مع الحكم عليه بغرامة تعادل نصف قيمة الحق المدعى به ؛ ولم يكن التقادم معروفاً في القانون المصري القديم قبل عهد الملك بوخوريس

قلنا إن الأصل في العقود ولا سيما البيع وهو من أهمها أن لا يكون البائع والمشتري أكثر من واحد ، لأن تعدد طرفي العقد لم يعترف به قانونهم فكان إذا تعدد البائعون اعتبروا متضامنين فيما بينهم ، وإذا تعدد المشترون وكانوا من عائلة واحدة صار أرشدهم وكيلاً عنهم . وكان يترتب على البيع المنعقد باليمين أمام الشهود أن يلتزم البائع بتعهدين أولهما تسليم سندات الملكية وثانيهما منع كل تعرض للمشتري . واشترطوا ذكر هذين التعهدين صراحة في العقد بادىء ذي بدء ثم عدلوا عن ذكرهما صراحة في العقد عند ما كثر استعمالها وأصبحا يفهمان ضمناً في العقد . وقسم القانون المصري القديم الأموال إلى منقولة وثابتة ، وقسم الأموال المنقولة إلى جامدة وحية . وكانت تلك الأموال بجميع أقسامها السالفة الذكر ملكاً لملك مصر يمنحها لمن يشاء ؛ وقد احتفظ الملك في الأموال الثابتة بحق الرقبة وأعطى حق الاستغلال لمن يشاء من رعيته

« يتبع »

عطية مصطفى مشرفة

الطريقة العلمية في الحضارة والحياة

للأستاذ محمد أديب العامري

كيف ذهب العمر ؟

يرى بعض علماء الحياة أنه قد مر الآن ما يقارب مليون سنة على وجود الانسان على وجه الأرض . ويرى بعضهم أن هذا كثير فينزل العدد إلى نصف من ملايين السنين . ومهما يكن من أمر الخلاف بين العلماء في ذلك فالمؤكد عندهم على كل حال أن عمر الانسان على الأرض لا يقل عن ربع مليون

ومن المعلوم أنه قد مضى الجزء الأكبر من هذه الحقب الطويلة دون أن يكون للانسان في المدنية طَول يذكر ، ولكن عشرة آلاف السنة الأخيرة شاهدت من تفجر عقل الانسان ما تقر به الآثار إلى اليوم ، كما أن النصف الأخير فقط من هذه الآلاف العشرة هو الذي يعرفه إنسان التاريخ في حضارة الدنيا

لحضارات العصور الحجرية والفلزية وحضارات الآشوريين والمصريين واليونان والرومان والهنود والصينيين والفرس والعرب والحضارة الحاضرة ، هي النتاج البشري المهم الذي نذكره حين ندرس التاريخ

ومن الواضح أن المدنية الحاضرة أزهى هذه المدنيات وأعلاها وأكثرها ديموقراطية وتمهيداً لرفاهية الانسان وسعادته

وأن هذه المدنية الزاهية العظيمة قد ظهرت ونمت ، ولا تزال تنمو بنمو أعظم ، فيما لا تزيد على الـ ٢٥٠ سنة الأخيرة . ومع ذلك كله فما زال مفكر مثل ويلز يقول : « إننا لم نشهد بعد الفجر الأول الباكر للتاريخ الانسانى »

وليس من غرضنا أن نبحث هذا الآن ، ولكن ويلز محق ، فليس تاريخ البشر فى طابعه الأكبر إلى اليوم إلا سلسلة من المجازر الوحشية والمجاعات والتدمير والغارات والسطو . فان يكن هذا جديراً بعقل الانسان وفكره فان فجر الحضارة قد طلع منذ أيام رجل جاوى القردى . ولعل النوع الانسانى إذ ذاك كان أشد حضارة فقد كان أشد ضراوة وأشد فتكا ؛ وإلا فان تاريخ النوع البشرى لم يخط منه إلى الآن شيء يستحق ألا يمحى

ومع ان الواقع يؤيد ما يقول ويلز فاننا نحب أن نحسب للمائتين والخمسين سنة الأخيرة حساباً خاصاً ؛ فقد خطت فيها الحضارة البشرية خطوات إن تكن راجفة فانها واعية ؛ وإن تكن فى بعض صفحاتها مخزية ، فانها فى بعضها لامعة مشرقة . فقد رافق هذه المدنية متاعب وآثام نحن نعانى اليوم أشد أدوارها مرارة ، ولكن المؤكد لدى التدقيق هو أن هذه المتاعب ستزول إذ تمحوها الأفكار البشرية العالية يوم تصفو المدنية نفسها للنوع الانساني خالصة من كدرها وويلها . والنظر فى هذه المتاعب لا يهمنا فى بحثنا الحاضر كذلك ، وانما يهمنا هنا إزالة الريب الذي يحدثه بعض الكتاب إذ يقولون ان المدنية الحاضرة لم تكن أشمل المدنيات وأرقاها وأبعدها تمثيلاً لاتجاه التطور الانسانى فى معارج التقدم

فحساب الـ ٢٥٠ سنة التي نمت فيها هذه المدنية بالنسبة إلى ربع المليون كحساب سنة فى الألف . فما الذى ضيع على تاريخ البشر هذه السنين كلها فجعلها هباء أو كالهباء ؟

ان السر فى ذلك هو « الطريقة العلمية » فهي طابع المدنية الحاضرة والعامل الأساسي فى سرعة خطاها وسعتها

فما هي هذه « الطريقة العلمية » ، وكيف أدت إلى اسراع خطوات النهضة الحاضرة ، وكيف يمكن أن نفيد منها فى حياتنا الاجتماعية والسياسية اليومية ؟

كيف كان الناس يفكرون ؟

كان الناس من قبل يؤمنون بالأرواح يصورونها لأنفسهم ، ويثقون بالأذكياء منهم (العلماء) ثقة عمياء . فقد كفى أن يقول أرسطو إن الهواء عديم الوزن حتى مضى قوله هذا صحيحاً دون ريب قروناً عديدة . وقد كان يكفى هوميروس أن يقول ان الأرض مستوى مستدير حتى يؤمن الناس بقوله دون تحقيق أو يمارضوه دون تحقيق . لم تكن نظرة الناس قائمة على التجربة والاختبار ؛ ومع أن النهضة العربية كانت أحدث النهضات ومن أبعدها قياماً على البحث والتحقيق ، فقد تخللها جدل غيبي عابث كثير وإيمان أعمى كثير . فاذا قال القزويني إن الهواء ينقلب ماء إذا برد كان على الناس أن يصدقوه ، لأنه يؤكد أنه ما افترى شيئاً مما أورد فى « عجائب المخلوقات »

فاذا كان الذى يقرر الحقائق العلمية لا يسأل عن براهين وأدلة ، راده الغرور أكثر الأمر ، وجال ذهنه فى المغيبات والمعميات يخترع للناس ويضع . وإذا كان من حق كل متكلم أن يتكلم فى رأيه عن أمر لم يخبره بالتجربة كان كل روائى الذهن عالماً مدهشاً ، وساد فى الناس سفسطائيوهم وكذابوهم والمتجرئون منهم على الحق والعلم

وهكذا بطأت خطوات العلم فى التاريخ منذ عرف الانسان إلى ما قبل القرون الثلاثة الأخيرة ، حتى وصل الناس إلى مفتاح هذه السرعة الهائلة فى الوصول إلى النتائج العملية والآراء النظرية فى مدنيتنا الحاضرة . هذا المفتاح هو الطريقة العلمية ، فكيف بدأت « الطريقة العلمية » بدءها الواضح فى تاريخ الناس ؟

كيف يفكر العلماء ؟

روى لأرسطو قوله : « لو استطعت أن أجد نقطة فى الكون تصلح محور ارتكاز لرفعت الأرض كلها على رافعة » . وقال ديكارت شيئاً مثل ذلك ، ولكنه كان أبعد أثراً فى تاريخ الفكر البشرى . قال : « لو كنت أستطيع أن أجد حقيقة لا ريب فيها لبنيت عليها كل العلوم » — حقيقة واحدة فقط ! هذا يدلك على مبلغ شك الرجل « العلمى » وحذره فى كل ما يرى ويسمع . فليس شيء عنده حقاً حتى يتضح بالوسائل التى تدفع

كل شك ؛ وليس شيء ينفى إلا بعد براهين النفى كاملة . فوقف الرجل العلمى تجاه المسائل هو موقف الحياد التام

وإذا لم يعتبر ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) نفسه أول واضع لأساس الطريقة العلمية فى التفكير البشرى الفلسفى ، فلا ريب أنه من أول الواضعين ، كما يعتبر جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) مؤسس الطريقة العلمية التجريبية فى العلوم

ويمثل كل من الرجلين فى ميدانين من ميادين التفكير البشرى « الرجل العلمى » الذى امتلأت جوانحه بملازمة الصفات التى يتصف بها أمثالها من العلماء

فالرجل العلمى يعشق الحقيقة ويصبر على الوصول إليها . هو ذو عين يقظة حذرة ترى الدقائق فى الأشياء المعرضة للبحث والدراسة . وما أشد هذه الخاصة ندرة ! فان عدداً من الناس يشهد حفلا ، فاذا سئلوا بعد انفضاضه عن عدده تشعبت أقوالهم عجباً ، وتداخلت عواطفهم إلى حد يفسد الوصف ويشوه الواقع . فالرجل العلمى قوي الملاحظة صحيحها ، دقيق الوصف لها . قال السير ميخائيل فوستر فى خطاب له فى رياسة المجمع البريطانى : « يكتفى الرجل — الرجل غير العلمى — بقوله (تقريباً) و (حوالى) ، أما الطبيعة فليس عندها من ذلك شيء . ليس من طريقها التوحيد بين شيئين مختلفين مهما دقت شقة الخلاف بينهما ، حتى ولو كان الخلاف يقاس بأقل من جزء من ألف من المليغرام أو المليمتر » فكلما أغفل المرء دقائق هذه الفروق بين الأشياء فى العلم ضل ؛ ومهما يكن من أمر صراعه واجتهاده فى الوصول إلى الحقيقة على أساس هذا الاغفال فإنه مخفق فى النهاية . لا محالة أن العلم لا يعرف إلا الدقة المطلقة ؛ والذى لا يصبر على هذه الدقة لا يستطيع أن يكون عالماً . ولم يخلق كل الناس ليكونوا علماء . على أن التمرس بالدقة فى الوصول إلى الحقائق أمر لازم فى التربية

والرجل العلمى متأن متحفظ ، فهو لايسرع فى إبرام حكمه على شيء حتى تتوفر لديه الأدلة كافية عليه . وإن من أكثر مايعصم الباحث هو الوصول إلى استنباطات لحجة قائمة على عدد قليل من الحقائق . لايتعجل الوصول إلى فرض جديد أو نظرية حديثة ليتعجل شيئاً لنفسه ، فان الفرض أو النظرية إذ تنهار فيما بعد تنهار على صاحبها . وهو لايتحيز إلى نفسه ولا إلى أى فرض أو نظرية . إنه ينظر إلى الحقائق مجردة

والرجل العلمى إنسان واضح صافى الذهن صافى الفكرة . وهو بهى أنه يدرك الأمور على حقائقها . فأنت تعرف أن بعض الناس يؤكدون أنهم يعرفون أشياء على وجه ما ، فاذا الحقيقة انها على وجه آخر . إنهم لايعرفون متى يعرفون شيئاً ومتى لايعرفونه . وهؤلاء لايمكن أن يكونوا علماء أو تتم لهم ثقافة . وكما أن الرجل العلمى واضح الفكرة فهو صافى العبارة كذلك . إنه حين يعبر عن شيء يعبر عنه بأبسط الكلمات وأوجز العبارات ؛ ومن هنا كانت لغة العلم الصحيحة سهلة . وأثر الأسلوب العلمى فى أدب العصر فانتحى السهولة الممتنعة . فالرجل العلمى لايستعمل لفظة تحتمل معنيين أو جملة تشير إلى مفهومين ، بل تكون عبارته قاصدة واضحة

وبالجملة يكون الرجل العلمى رجل ثقافة وعقلية علمية . فهو بطبعه يحب الصدق والوضوح والايجاز والتدقيق فى قبول مايعرض على عقله من حقائق وأقوال

ونجمل فنقول : إن الطريقة العلمية فى بحث مسألة من المسائل تقتضى :

١ — أن يجمع العالم من الحقائق والمشاهدات على المسألة التى يبحث فيها جهد ما يستطيع . ويجب أن يتأكد من صحة الحقائق والمشاهدات بالقياس الدقيق

٢ — أن ينسق مايصل إليه من الحقائق

٣ — أن يكون بناء على الحقائق فرضاً يؤول هذه الحقائق جملة

٤ — أن يجرب صحة الفرض بحقائق أخرى . فاذا قوى الفرض أدرك مرتبة النظرية

٥ — ويمكن أن تحيط النظرية بجميع الحقائق التى تبحث عنها بعد تجربة واختبار طويلين فتصبح قانوناً ، وهو أقوى تعبير يجمل الحقائق العلمية

ولنضرب مثلا يوضح الطريقة العلمية :

فالناس يعرفون الآن أن المادة ليست متلاحمة الأجزاء .

فبين أجزاء قطعة من الحديد وان ظهرت مصمتة فراغ كبير . واضح مثلاً أن بين أجزاء الفلين فراغ يملؤه الهواء أو فراغ مطلق لا شيء يملؤه . فالذي يشاهد أن الفلين يمتص الماء يفكر في الفراغ الذي ملأه الماء ، فيخطر بباله انه لا بد وأن يكون بين أجزاء الفلين فراغ . فاذا ما لاحظ ان قطعة السكر تمتص الماء كذلك اشتد خاطره بأن هنالك مادة غير الفلين يتخلل الفراغ أجزاءها . فاذا ما لاحظ ان قطعة السكر تذوب في الشاي ترجح لديه ان بين أجزاء الماء نفسه فراغ تملؤه دقائق السكر الذائب . ذلك نمط من الحقائق يجمعها العالم ، ويرافق جمعها في ذهنه فكرة توحد بين المشاهدات التي يقصدها منها . فهذه الفكرة هي الفرض

فاذا ما انطلق العالم يفتش عن مواد أخرى ويلاحظ ما إذا كان يفصل بين دقائق أجزائها فراغ ، ويرى أن هنالك كثيراً جداً من المواد يصدق عليه ما خطر له في الفرض أكد فرضه لجعله نظرية

والنظرية التي يمكن أن تستنبط من مثالنا هذا هي أن بين جزئيات المادة فراغ . فإذا صادف العالم المحقق أثناء بحثه مادة كالبلاتين شديدة التماسك لايبدو للمرء أول وهلة ان بين أجزائها فراغا حاول بكل وسائله الممكنة أن يعرف ما إذا كان هذا المثل يرد النظرية أو يؤيدها . فاذا ردها عاد العالم إلى حقائق أخرى ، فإذا كانت المشاهدات الجديدة غير ممكنة التأويل على أساس النظرية المقترحة سقطت وبحث عن غيرها ، وإلا فأنها تتأيد وتصبح بمنزلة القانون العام .

فأسلوب البحث العلمي واضح المعالم بيّن الطريق . وهو يقتضي كامر عقلية خاصة وإرادة خاصة وشمولاً خاصاً في النظر لا يتاح لكثيرين . واتباع هذا الأسلوب الواضح هو الذي خطا بالعلم هذه الخطوات الواسعة ، وفسح للعقل البشري هذه الآفاق العجيبة

الطريقة العلمية والحياة

إن أسلوب التفكير العلمي نافع جداً في العلاقات بين الناس . والتفصيل في ضرب الأمثلة على ذلك يحمل على الإطالة أكثر مما أطلنا

فنحن نشاهد ضعف قوة الملاحظة في التلاميذ والناس . والشرق لايختلف عن الغرب ، لكن الغربيين أخذوا بأساليب البحث العلمي زمناً فقويت عندهم ملكة المشاهدة واتزنت عقول كثيرين منهم وترفعت عن الأوهام والأخذ بالظواهر ؛ وكان لهذا أثر كبير في حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا ريب أن أخذنا بأسباب المدنية الحاضرة سيؤدي بنا ما أسرعنا باتخاذنا هذه الأسباب إلى الغاية نفسها ؛ وفي هذا الخير كل الخير

فكثيرون منا مازالون يأخذون بظاهر الأقوال سواء أجرت هذه مجرى حقائق العلم أو حقائق الحياة . ويعزى كثير من الركود والسوء في مجتمعنا إلى هذا الأخذ البسيط . يقال لنا مثلاً إن مرافق الحياة والانتاج في بلادنا ضعيفة ، فنأخذ بظاهر هذا القول ونتقاعس عن وسائل الانتاج العلمي فيشتد بنا الخوف والتزاحم

ومن مظاهر حياتنا اتهامنا الشديد للذين يصيبون منا شيئاً من النباهة . وهذا خلق عام في الناس ، ولكن شدته عندنا ظاهرة . فما إن ينبغ نابغ حتى تدور الألسنة فيه بالكذب والافتراء . ومما يدل على ضعف الروح العلمية في الناس تصديقهم بمفتريات وادعاءات لا تنطبق على الواقع ولا يصدقها العقل . وهم يأخذون بهذه المفتريات بضعف النظرة العلمية فيهم . فالذي يحملك على رأى في إنسان لم تعرفه أنت بنفسك كالذي يحملك على القول بأن الهواء غير ذي وزن دون أن تزنه — كلا الأمرين يدل على فقدان النظرة العلمية

« السلط » محمد أديب العامري

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٢ —

قدمت طرفاً عن نشأة أبى الفرج وعن حياته الأدبية ، فلأقدم طرفاً من شعره ونثره محاولاً أن أكشف فى أثناء عرضى لها عن مكنون معانيها ، وروائع أخيلتها ، بما يقر عين الكاتب ، وينقع غلة الشاعر ، فأحيى شعراً كاد أن يندثر ، وأذيع أدباً قد غمر ، بينا صاحبهما كان فى عصره غمر البديهة وفير النباهة . ولا أكاد أفهم لماذا ضن الزمان على أبى الفرج بما وهبه لمن هم أدنى منه مكانة وأقل قدراً ، ممن ذاع فى عصرنا أدبهم ، وصارت ملء الأسماع والأبصار أسماؤهم ؛ إلا إذا اعتقدت أن للأدب جداً قد يكون لامعاً فينشر تاريخ صاحبه ، وقد يكون خابياً فيأفل بأفوله صيت كاتبه ؛ وهذا هو نصيب أبى الفرج من أدبه ، ولكنى أرجو أن أقضى حقوقاً نام قاضيها ، وأوفى ذكر أيادٍ على اللغة لم تجد من يوفيها ، فيتنبه علية الكتاب ورافعو ألوية الأدب فى مصر إلى أمثال الببغاء ممن لفهم الدهر فى طياته ، وطواهم بين إمماته ونكرانه ، وكانوا فى إبان نهضة اللغة من النابهين ، وفى عصور ازدهار الأدب من الفحول النوابغ ، فيحيون تراثهم وينشرون للأدباء سيرهم ، ويقرئوننا شعرهم ونثرهم

طرق أبو الفرج جميع أغراض الشعر المتداولة فى عصره إلا ما يبعد صاحبه عن النبل والمروءة ويسمه بسمة الفحش والسفاهة أو ينظمه فى سمط السلطاء ، فلم يكن هجاء مقذعا بل كان يربأ بنفسه عن أن تكون فى منزلة دنيا فيتناول الأحساب يعرضها أو الأعراض ينهشها ، كما كان يفعل ذلك أكثر شعراء عصره . وإنه ليبدو لنا من دراسة شعره أنه كان رقيق الحاشية سجيح الخلق نبيل المروءة محبباً إلى علية القوم وعامتهم ، يرى أن له مكانة ترفعه عن اللغو ، وتسمو به عن الهجو . وإليك ما يشعرنا بذلك من شعره قال :

أكلُّ وميض بارقة كذوب؟ ... أما فى الدهر شيء لا يريب ؟
تشابهت الطباع فلا دنىء ... يحن إلى الثناء ولا حسيب
وشاع البخل فى الأشياء حتى ... يكاد يشح بالريح الهبوب

وفيها يقول :

أبى لى أن أقول الهجر قدر ... بعيد أن تجاوره العيوب

وإذن فاعتداده بنفسه ، وعرفانه قدرها ، هو الذي حدا به إلى الترفع عن الهجاء . ولقد كان أبياً عزيز النفس لا يتحمل منة ولا يستكين عن ذلة ويدعو إلى القناعة شأن شعراء الزهد فى عصره :

ما الذل إلا تحمل المنن ... فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما الـ ... ـمِلَّةُ فى عتبنا على الزمن

ومع أن هذا الشعر قد يكون صادراً للحكمة وإرسال الأمثال فإنه يدلنا على صفاته ويشي إلينا ببعض خلاله . كذلك لم يكن من الرقعاء الماجنين أو الخلعاء المستهترين ، وإن هو قد ألم فى صدر شبابه بما تدعو إليه نزوات الشباب ، وأتى فى باكورة صباه ما يصبو إليه من لا يزال غض الإهاب ، لكنه مع هذا كان عفيف اللسان شريف البيان ، تقرأ حوادثه الكاعب الثانية والشمطاء الفانية فلا تجد الأولى ما يريق حياءها أو يبعث الخجل إلى وجهها ، وإن وجدت الأخرى ما يهيج أشجانها ويتصباها ، ويبعث فيها ذكريات أيام شبابها وصباها ؛ وهذه قصة تريك حقيقة ما نقول :

تخلف عن الغزو مع سيف الدولة بدمشق ، وكانت سنه قرابة العشرين ؛ ويظهر أنه أحس وخز الضمير وتأنيب الشهامة ، فأخذ يتسلى عن تخلفه بارتياد الحدائق والرياض ، ويتعزى عن اتهامه بالقعود بالقصف والمجون ، فقصد إلى دير مران ، واختار له من رهبانه سميراً هو أقلهم فى الرهبنة حظاً ، وأديرت بينهما الراح ، وإذا راهب آخر يوحي إليه بطرفه يستقدمه إليه ، فانتحيا ناحية ، فسلمه رقعة فضها فإذا هي دعوة إلى زيارة أرسلها صاحبها فى عبارة رقيقة وأبيات رشيقة ختمها بهذين البيتين :

فإن تقبلت ما أتاك به ... لم تشن الظنَّ فيه بالكذب
وإن أبى الزهد دون رغبتنا ... فكن كمن لم يقل ولم يجب

فصحا من سكره ، وتخيل الداعي في نثره وشعره ملكاً

كريماً ، أو عاشقاً نبيلا ، فكان جوابه على دعوته ما ذكره فى وصفه لتلك الحادثة إذ يقول :

وكان جوابي طاعة لا مقالة
ومن ذا الذى لا يستجيب إلى اليسر
فلاقيت ملء العين نبلا وهمة مُحَلَّى السجايا بالطلاقة والبشر

فاستقبله غلام (كأن البدر ركب على إزاره) واقتعدا وغلاميهما غارب اللذة وتناهيا نوادر الأخبار وتناهبا روائع الأشعار على كؤوس المدام ، فما شملتهم بالفرح الشمول حتى أمر المضيف غلامه بالغناء فغنى :

يا مالكي وهو ملكي وسالبى ثوب نسكي
نزه يقين الهوى فيك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى إلى الصباح وأبكى

فانتشيا من راحين ، وطربا بعدامين ، واستسلما للمرح ، وأسلما زماميهما إلى النشوة والفرح ، فاقترح المضيف على الضيف (أن يشى ليلتهما بشيء يكون لها طرازاً ولذكرها معلماً) ففعل وأنشد ارتجالاً :

وليلة أوسعتنى حسناً ، ولهواً ، وأنساً
ما زلت ألثم بدراً بها ، وأشرب شمساً
إذ أطلع الدير سعداً لم يبق مذبان نحساً
فصار للروح منى روحاً وللنفس نفساً

فطربوا وقصفوا ما طاب لهم الطرب والقصف ، وقد وشى ليلتهما بقصيدة طويلة جميلة النسج سنية الخيال نورد منها قوله :

جنينا جَنيَّ الورد فى غير وقته
وزهر الرُّبا من روض خديه والثَّغر
وقابلنا من وجهه وشرابه
بشمسين فى جنحى دجى الليل والشَّعر
وغنى فصار السمع كالطرف آخذاً
بأوفر حظ من محاسنه الزُّهر
وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما تمزج كفاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منة الصحو إذ دعا إليه ، ولم نشكر به منة السكر

مضى وكأنى كنت فيه مهوماً
يحدث عن طيف الخيال الذى يسرى

أليست أبياته كلها وهى فى موقف ينسى الحياء سخية به كريمة بالاحتشام ؛ ليس فيها هناة تأخذها عليه فتاة ، ولا خيال تعافه الحييات أو تتنكر له الناسكات ؟

ويذكرنى وصف ليلته أبياتاً لشاعرنا العظيم محمود سامى باشا البارودى حذا فيها حذو أبي الفرج ، فوصف ليلة قال :

وليلة من ليالى الأنس صافية بلغت بالراح فيها كل مقترحى
قتلتها بعد أن نام الخلى بها بغادة لو رأتها الشمس لم تلح
فكيف لا تدرك الأفلاك منزلتى
والبدر فى مجلسي والشمس في قدحى

ولكن شتان بين الليلتين ، فليلة البارودى إحدى ليالى أنسه الكثيرة ، وهي لم تزد على أنها ليلة صافية ، بلغ فيها مقترحه لا أمنيته ؛ وما أسهل ما يبلغ الانسان ما يقترح ! أما ليلة الببغاء فليلة فريدة فى حسنها حافلة بلهوها مفعمة بأنسها ؛ وكيف لا تكون كذلك وهو يلثم بدراً ويرشف شمساً ؛ أما صاحبه فانه يجالس البدر أو يخالسه ، وينظر إلى الشمس كما ينظر إليها عابر سبيل ، وفرق بين من يلثم ويشرب ، ومن يجالس وينظر ، وأين هو من قول الببغاء ؟

فصار للروح منى روحاً وللنفس نفساً

وكان على المحتذى أن يفوق المحتذى به ، ويجلى فى الميدان الذى اختاره لمنازلته فيه لا أن يجىء مصلياً بيننا الأول مرتجل والثانى متئد ، ولكن ذلك ما لم يستطع له شاعرنا بلوغاً . ولننتقل إلى الحديث عن شعره

تأثر أبو الفرج فى شعره خطوات شاعرين ملأ ذكرهما الآفاق ، وذاع صيتهما فى الشام والعراق ، هما أبو تمام والبحترى ، فقد كان اسماهما فى عصره لا يزالان أرفع أسماء الشعراء فتأثر بهما ، فأولع بالبديع ولعاً شديداً ، وأوغل فيه أعظم إيغال ، فانك لا تكاد تجد بيتاً ليس فيه نوع من أنواع البديع ، وهذا هو ما أخذه عن أبي تمام ، ولكنه لم يغرب فى ألفاظه إغرابه ولا تعمد الكلمات الجزلة والعبارات الضخمة ذات الموسيقا الصاخبة

والرنين القوى التى أوخذ عليها أبو تمام ، حتى وجد في عصره من النقدة من ينكر عليه عبقريته بل شاعريته ، فان كلفه بالاغراب وشغفه بضخامة الألفاظ كان سبباً فى غموض بعض معانيه . وأخذ عن البحترى الألفاظ العذبة والأخيلة الشائقة التى لا تصك الآذان ، ولا تثقل على الأسماع ، ولا تدفع بالقارىء إلى قطيعة الشعر جرياً وراء المعجمات تارة ، وإمعاناً فى تفهم المعميات من المعانى أخرى ، فأخذ من طريقتيهما بالحسنيين ، وكاد يجلى فى الحلبتين . ولا أدعى أنه بذهما أو ساواهما ولكنى أعتقد أنه عدا خلفهما فلم يتخلف ، ونهج بعض نهجهما دون أن يتكلف ، فشعره سهل معبد لا تكتنفه جنادل ، ولا تحوطه مفاوز ، بل هو مما يلذ الأديب العريق ، ويفهمه المتأدب الرقيق . وسأورد من شعره غير ما أوردته فى مناسباته ما يروق غير مدقق فى الاختيار ولا متحر الجودة ؛ لأنى أرى شعره طبقة واحدة ، ووحدة غير متنوعة ، لأنه نبعة صادقة . فاسمعه يصف ولهه بحبه ، وهيامه بمالك لبه ، فهو يرى أن قربه وبعده يستويان عنده لأن الوصل لايطفىء غلة ولا يبرىء علة ، والبعد لايزيد تأجج شوقه ، ولا يؤرث نار وجده ، فقد بلغ كلاهما النهاية وأوفيا على الغاية ، وهى مبالغة طريفة ساقها فى لفظ ساحر قال :

حصلت من الهوى بك فى محل … يساوى بين قربك والفراق
فلو واصلت ما نقص اشتياقى … كما لو بنت ما زاد اشتياقى

وقد طُرق هذا المعنى من قبله ، فلعله ألم به فسطا عليه ، أو جاء من توافق الخواطر ، وكلاهما جائز . وهذان بيتان فى هذا المعنى لعليه بنت المهدى قالت :

إذا كان لا يسليك عمن تحبه … تناء ولا يشفيك طول تلاقى
فما أنت إلا مستعير حشاشة … لمهجة نفس آذنت بفراق

ولكنه تخلف عن علية فقد بلغت غرضها فى بيت ، أما هو فاحتاج بيته الأول إلى بيت ثان يوضح غرضه ويبين عن قصده . وهذا معنى آخر من المعانى المطروقة قبله لم يأخذه كما سبق إليه بل جود فيه وحسن حتى ليخاله القارىء معناه المبتكر ، قال :

من ضر من بعد السرور يبعده … لو كان يجمل فى صيانة عبده
يبدو فأطرق هيبة ومخافة … من أن يؤثر ناظري فى خده
قد صرت أعجب أن علة طرفه … ليست تؤثر علة فى وده

أخذ هذا المعنى من قول أبى تمام :

ومضمخ بالمسك فى وجناته … حسن الشمائل ساحر الألفاظ
أبدا ترى الآثار فى وجناته … مما يجرحها من الألحاظ
وتراه سائر دهره متبسماً … فإذا رآنى مر كالمغتاظ
فى القلب منى والجوانح والحشا … من حبه حر كحر شواظ

وقد زاد الببغاء على معنى أبى تمام أن إغضاءه لسببين : أولهما هيبته وجلالته ، وثانيهما خشيته أن يؤثر طرفه فى وجنته . ولعله مما يشين المحبوب أن يرى دائما مجرح الوجنات مخدد الخدود من تلك الألحاظ اللواحظ والعيون النواظر ، وأحسب أنه أخذ معنى أبى تمام فى قوله :

ومهفهف لما اكتست وجناته … حلل الملاحة طرزت بعذاره
لما انتصرت على عظيم جفائه … بالقلب كان القلب من أنصاره
كملت محاسن وجهه فكأنما … اقتبس الهلال النور من أنواره
وإذا ألح القلب فى هجرانه … قال الهوى لا بد منه فداره

وإلى عدد تال وموعد قريب .

« المعادي » عبد العظيم على قناوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٢ —

— لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه . . . كونى من شئت أو ما شئت ، خلقاً مما يكبر فى صدرك أو مما يكبر في صدرى؛ كونى ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهري مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ، ولكن دعينى فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين . كونى ما أرادت نفسك ، ولكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان ... ! » (هو)

— « إن أمي ولدت نفسي ونفسي هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب ... » (هى)

هو وهى ؟

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ...

« كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه ما نشر وطوى ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحى للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛ فكل ما فى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه ! »

***

لم تكن (هى) أولى حبائبه ولكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلّف وراءه أربعين سنة ونيفا حافلة بأيام الهناءة مشرقة بذكريات الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرُ غلام يخطو إلى الشباب ...

سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعي الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتمس فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل (ثلاثاء) هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليها وتحدثت إليه ، وكان كل شيء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولمسه الحبُّ لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه ... وقامت تودعه إلى الباب وهى تقول : « متى تكون سعادتى بالزيارة الثانية ؟ » فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... !

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛ ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف ، لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير مُصَيّفٍ [1] مشغلةً فى الليل والنهار

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه شيء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبتْ إليه على أن يكون له عوض مما فاته يومٌ وحده ...

كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف فى سبيله شيء ، ولكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد وجدهما ، ولكن فى نفسه لا فى لسانه وقلمه ، وأحس وشعر وتنوَّرت نفسُه الآفاق البعيدة ، ولكن ليثور بكل ذلك دمُه وتصطرع خواطره ولا يجد البيان الذى يصف نفسَه ويُبين عن خواطره ...

بلى ، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعرُه وبيانه ، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعراً وكتابة ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع

---

(١) يزعم الرافعى أن (مضيف) هى تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم ، وصوابه صفى (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً على استعماله لأنها هى رضيته وكانت تتحبب به إليه ... فلا كان سيبويه وأبو على وابن حيان إن رضيت هى !

منها أحد بيتاً ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان

و (هي) أديبة فيلسوفة شاعرة ؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه « من خصائصها أنها لا تُعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها ، صفاءَ اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة ، وهذا هو الحب عندها ... »

« ولا يستخرج عجبَها شيء كما يعجبها الكلام المفنّن المشرق المضيء بروح الشعر ؛ فهو حلاها وجواهرها ؛ وما سوق حبها من دنانيرَ غيرُ المعاني الذهبية ؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خفقة قلب على قلب »

***

وكذلك تحابّا ؛ وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، ومضى الحب على سنته . ونظر الرافعي إليها وإلى نفسه وراح يحلم ، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، فجاءت كبرياؤه لتخُطّ الخاتمة ...

وراح الرافعي يوماً إلى ميعاده ، وكان في مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها ؛ ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعي مستريباً ينظر ؛ وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوجَ ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه : « ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ... ؟ » فاحمر وجهه وغلى دمه ، ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ... واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب والإخلاص في أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسي حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك في يناير سنة ١٩٢٤

وثابت إليه نفسه رويداً رويداً ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان !

ومضت ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا وجهاً لوجه ، إلا مرة ، في حفل أدبي في طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر ...

على أن الرافعي لم ينس صاحبته قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك اليوم وما تبرح خاطره لحظة ، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين (فلانة) ، ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضي ؟ إنها حماقتي وكبريائي ، ليتني لم أفعل ، ليت ... ! » ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام تستشفي منذ عام فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها في لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة في (دمشق) لتزورها في مستشفاها وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه[1] :

« ... ... بالصدق يا صديقي أنني كلما استعدت بذاكرتي وصية (فلانة) المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، تعتريني حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت في مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإني أتهمك قانوناً ... بأنك كنت السبب فيما نابها ، فماذا عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنت قاسياً وفي منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا بل حين تعتقد أن الرجل ... ... لا ، السكوت أولى الآن ... »

أما هذه (الوصيّة) التي أوصت بها (فلانة) زائرتَها لتبلغها إلى الرافعي ، فلست أعرف ما هي ؛ فقد قصّ الرافعي هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إليّ ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه ، ولعل ولده الدكتور الرافعي يدري ، فإن كان عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتي يوم تكون

(١) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاءه من أنباء صاحبته !

فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته فى البحث الأدبي

***

قلت : إن الرافعى قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائلَ لا يحملها ساعي البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها فى ثنايا ما تنشر لها الصحف من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام فى موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول فى حديث أو مقالة أو قصة ؛ هى رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفى أكثر من مرة والرافعى يملى علىّ مقالاته — كان يستمهلنى قليلا ليُـفَـتِّـش فى درج مكتبه قليلا فيخرج ورقة أو قصاصة يملى علىّ منها كلاماً ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الرد فى رسالة تكتبها (فلانة) فيتلقاها الرافعى فى صحيفتها كما يفض العاشق رسالة جاءته فى غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء ...

هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها ، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء التى ربطتهما قلباً إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين ...!

***

وكنت مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فقال لى : « مِلْ بنا إلى هذا الشارع ! » ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ولكنى أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف الرافعى معتمداً على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدرى ، لعلها الآن خلف هذه النافذة .. ! »

قلت : « مَنْ ؟ » قال : « فلانة ! »

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »

قال : « لعلها الآن في السيما . إذا كان الصباح فاغْدُ علىّ مبكراً لنزورها معاً ، إن بى حنيناً إلى الماضى ... ليتنى ... ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيراً بلقياك ... ! »

قال : « إذن فى الصباح ، ستكون معي ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك على قلبك ... أو تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! »

قلت : « لا ، إنها عجوز ، فما حاجتى بها .. ؟ » وضحكت مازحا فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وَىْ ! عجوز ، إنها أوفر شباباً منك ! »

قلت : « قد يكون لو وقفت بها السن منذ اثنتى عشرة سنة ... ! »

قال : « صدقت ... ! اثنتى عشرة سنة ... ! »

وسكتَ وسكتّ حتى أوصلته إلى الدار ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته موعده ، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول: يا بنىّ ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما (هذه) فأظننى لا أعرفها ... إننى أحرص على الماضى الجميل أن تتغير صورته فى نفسى.. بحسبى أنها فى نفسى..!»

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه أنها سافرت إلى الشام لعلة فى أعصابها ... ! »

« لها بقية » محمد سعيد العريان

الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

سيرته

ولد الكميت بالكوفة سنة ستين للهجرة ، وهي السنة التى قتل فيها الحسين رضى الله عنه ، وكان أهل الكوفة قد دعوه ليبايعوه فى بدء عهد يزيد بن معاوية ، فسار إليهم من مكة إلى أن وصل إلى كربلاء ، فقتله فيها جيش عبيد الله ابن زياد

وكانت الكوفة عاصمة العراق وما إليه من بلاد فارس وما حوالها ، وكانت أيضاً مهداً للتشيع العلوي من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة لخلافته ، كما كانت دمشق بالشام مهداً للتشيع الأموى بتأثير معاوية رضى الله عنه ، ولعلهما بهذا أرادا أن يستغلا العصبية القديمة بين العراق والشام ، فقد كانت هناك منافسة شديدة فى الجاهلية بين عرب العراق وعلى رأسهم دولة المناذرة ، وبين عرب الشام وعلى رأسهم دولة الغساسنة . ولم يترك على (ض) المدينة التي كانت عاصمة الخلفاء قبله إلى الكوفة إلا ليكون له أهل العراق على معاوية وأهل الشام ، ويساعدوه على أن تكون الخلافة بعاصمتهم ، فتحيا بها بلادهم ، ويكون خيرها لهم ، ولا يستأثر به أهل الشام دونهم ؛ وهذا إلى مافى العراق من الرجال والخصب ، فيضاهى بهذا خصب الشام بالمال والرجال ، ويجد من الحاقدين على معاوية وبنى أمية مالا يجده فى مكة والمدينة

وقد كان الكميت من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن معد بن عدنان ، وهو الجد الأعلى للنبي عليه الصلاة والسلام ، فنشأ بين من نزح من قبيلته من البادية إلى الكوفة ، وأخذ عن علمائها من أهل الحضر علوم الدين والأدب ، وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، فتأثر من هذا وذاك بثقافة البدو والحضر ، واجتمع له علم غزير بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها ، وروى الحديث وغيره من العلوم الدينية ، وقد ذكر صاحب الأغانى بعض رواياته فى الحديث فليرجع إليها من يريدها

ولم يقصر الكميت نفسه على العلم والأدب ، بل كان يأخذ نفسه بقول الشعر والاستماع إليه ، ولكن ميله إلى هذا لم يكن يبلغ ميله إلى العلم والأدب . ويحكى أنه وقف وهو صبى على الفرزدق وهو ينشد أشعاره ، فراع الفرزدق حسن استماع الكميت وأخذه الزهو والخيلاء ، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبي وقال له : هل أعجبك شعري يا بنى ؟ فأجاب الكميت : لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل ، فانتشى الفرزدق ، وأخذ العجب منه كل مأخذ ، وقال للصبى فى نشوة المفتون : أيسرك أني أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبي فلا أريد به بدلا ، ولكن يسرنى أن تكون أمى . فحصر الفرزدق ، وقال : ما مر بى مثلها

فلما أتم الكميت دراسته اشتغل بما كان يغلب ميله إليه من العلم والتعليم ، فكان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة ، ولكن عشيرته من بنى أسد كانت تريد منه أن يكون شاعرها الذى يعلى من شأنها ، وينشر من مفاخرها ، وينافح عنها أعداءها ، وقد صار الشعر فى الدولة المروانية كما كان فى الجاهلية مفخرة القبائل العربية فتعلقت به تلك القبائل كما كانت تتعلق به فى جاهليتها ، فأخذ بنو أسد يرغبون الكميت فى قول الشعر ، ويحملونه على الانصراف إليه والتفرغ له ، ويحكون فى ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميت يوماً وقال له : يا كميت لم لا تقول الشعر ؟ ثم أخذه فأدخله الماء وقال : لا أخرجك منه أو تقول الشعر ، فمرت به قنبرة فأنشد متمثلاً :

يالكِ من قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ   خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفرى
وَنَقِّرى ما شئت أن تُنَقِّرى

فقال له عمه ورحمه : قد قلت شعراً فاخرج ، فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسى ، فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة ، وهى أول شعره ، ثم غدا على عمه فقال : اجمع لى العشيرة ليسمعوا فجمعهم له فأنشد :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ
ولا لعباً منّي وذو الشيق يلعبُ

وقد طعن الأستاذ زكي مبارك فى صحة هـذه القصة ، وذكر أنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره ، لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هى صرخة شاعر فحل طال منه الصيال

ولا وجه عندى لهذا الطعن فى صحة هذه القصة ، لأن هذه القصيدة : (طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ) من قصائد الهاشميات ، وقد ثبت من غير هـذا الطريق أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ماقاله من الشعر ، وواضح أنه لايراد من هذا إلا أنها أول ما قاله من الشعر الجيد الذى يعتد به ، فلا يمنع أن يكون له شعر قبل هذا الشعر ترقى فيه إلى أن وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد

فلما أرادته عشيرته على أن يكون شاعراً ينافح عنها ويصاول أعداءها ، صرف نفســه إلى قول الشعر وتفرغ له حتى أجاد إنشاءه ، وكان قد ورث التشيع لأهل البيت عن بيئته بالكوفة التى نشأ فيها ، ولم يكن للشيعة فى عهده شاعر يتعصب لها وينشر دعوتها كما كان لبنى مروان من الشعراء الأخطل وغيره ، وكما كان للخوارج الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان ، فرأى أن يكون هو شاعر الشيعة وناصر دعوتها ، والمشيد بذكر أهل البيت والناشر لفضلهم

وقد كانت الشيعة فى ذلك الوقت تعادى بنى مروان والخوارج معاً ؛ ولكن العداوة بين الشيعة والخوارج لم تكن تبلغ درجة العداوة بينها وبين بنى مروان ، لأن الخوارج كانوا قد اشتغلوا بعداوة بنى مروان بعد أن صار الأمر لهم ، وتناسوا عداوتهم للشيعة بعد انصراف الأمر عنهم ، فاشترك كل من الشيعة والخوارج فى مناهضة الدولة المروانية ، ومناوأتها بسيوفهم وألسنتهم ، وكان اشتراكهم في معارضة هذه الدولة سبباً فى تخفيف ما بينهم من العداوة

ولهذا كان تعصب الكميت فى شعره للشيعة موجهاً إلى بنى مروان وحدهم ، ولا يدخل فيه أولئك الخوارج الذين لقى الشيعة منهم مالقوا فى عهد على رضى الله عنه ، بل لم يمنع ذلك التعصب الكميت من إخلاص المودة للطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج ، فقد كان بينهما من الخلطة والمودة والصفاء مالم يكن بين اثنين ، حتى إن راوية الكميت قال : أنشدت الكميت قول الطرماح :

إذا قبضتْ نفسُ الطِّرمَّاح أخلقتْ
عُرَى المجد واسترخى عنانُ القصائِد

فقال الكميت : إى والله ، وعنان الخطابة والرواية

وهذه الأحوال كانت بينهما على تفاوت المذاهب والعصبية والديانة ، فقد كان الكميت شيعياً عصبياً عدنانياً من شعراء مضر متعصباً لأهل الكوفة ، وكان الطرماح خارجياً صفرياً قحطانياً عصبياً لقحطان من شعراء اليمن متعصباً لأهل الشام ، فقيل للكميت : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة

والعامة التى اتفقا على بغضها كانت فى ذلك الوقت جمهور الأمة من خاصة الناس وعامتهم ، فقد استكانوا لحكم بنى مروان حين طال عليهم أمده ، وخضعوا لظلمهم ولم يعنهم إلا أمورهم الخاصة ، كشأن العامة فى كل وقت وفى كل أمة ، ولا يزال بعض الحكومات القائمة يقرب الآن بين معارضيها ، وينسيهم ما بينهم من عداوات ، واختلاف فى المشارب والأهواء

فنصب الكميت نفسه لمناهضة بنى مروان بشعره ، وهم أصحاب الملك فى الناس ، وأخذ ينصر عليهم أهل البيت والأمر مدبر عنهم ، وليس هناك مطمع فيهم ، وإنما هو سبيل اتخذه لنفسه يرضى به عقيدته ، وينأى بعلمه وشعره أن يتخذهما أداة كسب كما فعل ذلك غيره من الشعراء ، فكان يقول الشعر للشعر ويتخذه وسيلة لإرضاء نفسه وعقيدته ، ويجاهد به فى إصلاح حال أمته ، ويؤدى به مايجب على الشاعر في عصره ، ولا يهمه بعد هذا ما يفوته من دنيا الملوك ، ولا ما يصيبه من عنتهم وإرهاقهم

وقد أراد ثراة أهل البيت أن يثيبوه على ما يقوم به من نصر دعوتهم ، وإنشائه القصائد الطوال فى مدحهم والإشادة بذكرهم ، فكان يعرض عما يعرضونه عليه من الصلات والجوائز ، ويذكر أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى ، ونصرة الحق الذى يدين به ، وقد حدث صاعد مولى الكميت قال : دخلنا على أبى جعفر محمد

ابن على فأنشده الكميت قصيدته التى أولها :

مَنْ لقلبٍ متيَّم مستهامِ

فأمر له بمال وثياب ، فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه ، ولكننى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله ، فرده وقبل الثياب

وحدث أيضاً فقال : دخلنا على فاطمة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها وأسقته الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب ، فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنى لا أحبكم للدنيا

وحدث محمد بن سهل صاحب الكميت قال : دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق فقال له : جعلت فداك ألا أنشدك ؟ فقال إنها أيام عظام ، قال إنها فيكم ، قال هات ، وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب ، فأنشده فكثر البكاء حتى أتى على هذا البيت :

يصيبُ به الرَّامونَ عن قوس غيرهمْ

فيا آخراً أسْدَى له الغيَّ أوَّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى

عبد المتعال الصعيدى

الحكم فى مباراة الأقصوصة

اجتمعت لجنة التحكيم فى مباراة الأقصوصة التى اقترحتها مجلة الرواية وجعلت للفائز فيها جائزة قدرها خمسة عشر جنيها ، يوم الأحد الماضى مؤلفة من حضرات الأساتذة : محمد فريد أبو حديد ، توفيق الحكيم ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، محمود تيمور ، ثم صاحب هذه المجلة ، ونظرت فيما تجمع من الأقاصيص المتسابقة ، ثم قررت النظام الذى تتبعه فى قراءتها وفحصها . وستجتمع مرات أخرى متوالية حتى يصدر حكمها فننشره فى الرواية والرسالة وبعض الصحف .

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٧ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجى — كونفيشيوس

مؤلفاته

تنقسم مؤلفات هذا الحكيم إلى قسمين . فأما القسم الأول فهو مجموعة شروحه وتعليقاته على الكتب المقدسة التى نسخها بخطه ثم أحاطها بطائفة ضخمة من معارفه العامة وآرائه الشخصية فى الدين والفلسفتين النظرية والعملية ، كما أن تلاميذه قد أحاطوا الأقسام الفلسفية من هذه الكتب بشروحهم وتعليقاتهم كذلك إلى حد أن اختلطت على الباحثين آراؤهم بآراء أستاذهم

وأما القسم الثانى فهو كتبه الخاصة التى وضعها وضمنها مذهبه وعارض فى بعضها مذاهب من سبقوه وعاصروه من الفلاسفة الذين أسلفنا الحديث عنهم في الفصول السابقة . وهذا القسم أيضاً ممتزج بآراء التلاميذ على نحو ما امتزجت آراء سقراط بمذهب أفلاطون وإن كانت آراء حكيمى الإغريق قد وضحت وتبين منها ما للأستاذ وما للتلميذ بفضل علماء العصر الحديث الذين نخص منهم بالذكر العالمين الفرنسيين « ريڤو » و « بريهييه »

القسم الأول

يحوى هذا القسم كل الكتب المقدسة الهامة التى سبقت عصر « كونفيشيوس » ولكن الذى يعنينا هنا هو الكتب الرئيسية وهى : « وى — كينج » أى الكتب الخمسة . فأما « شو — كينج » و « شى — كينج » فقد كان حكيمنا معنياً بهما عناية فائقة إلى حد أنه اتخذ مما فيهما من صور مُثله العليا التى يجب أن يحتذيها الحكماء والملوك ؛ ولم يعرض المستصينون لتحقيق ما احتواه هذان الكتابان وتبيين ما للأستاذ فيهما وما

للتلاميذ من شروح وتعليقات . وأما « إي — كينج » فقد وجد عليه الباحثون شروحاً مطولة ، وتعليقات مسهبة ، وتقريرات مطنبة ، فدرس العلماء كل هـذا دراسة دقيقة خرجوا بعدها مقتنعين بأن هذه المطولات مزيج من آراء : « كونفيشيوس » وتلاميذه ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى الآن أن يحلوا هذه المشكلة تماماً فيبينوا ما للأستاذ وما للتلاميذ . وأما « لى — كى » فقد ضاع أكثره ، لأنه حين أحرقت الكتب لم يكن مُتَدَاوَلاً كغيره ففقد منه ما فقد ، والجزء القليل الباقى منه وجد — فيما يظهر — بدون شرح ولا تعليق ، لأنه كتاب طقوس دينية أكثر منه أى شيء آخر ، فلم يكن هناك داع للشرح أو للتعليق . وأما كتاب « تشون — تسيو » ومعناه : « يوميات الربيع والخريف » فهو الكتاب الوحيد الذى لم يَرتبْ أحد من الباحثين المدققين فى نسبة ما عليه من شروح وتعليقات إلى « كونفيشيوس » وحده . ويؤكد أولئك الباحثون أن هذه التعليقات هى أسمى بكثير من النصوص الأصلية للكتاب ، لأن هذه التعليقات تدل على علم واسع ودراية شاملة بالتاريخ الصينى القديم والمعاصر لهذا الحكيم بدرجة أدهشت علماء العصر الحديث

القسم الثانى

يتكون هذا القسم من أربعة مؤلفات تدعى بالصينية « سى — شو » . وتعبيرنا فى جانب هذه الكتب بألف أو وضع فيه شيء من التجوز ، لأن المستصينين يكادون يجمعون على أن الحكيم أملى بعض هذه الكتب على تلاميذه إملاء كما حاورهم أو حاضرهم بالبعض الآخر فرووه عنه وأثبتوه مقترنا باسمه دون تغيير ولا تبديل . وليس هذا فحسب ، بل إن كتاب « لون — يو » أحد الكتب الأربعة وأكثرها إنتشاراً قد وجد مكتوباً بأسلوب أحد الذين تتلمذوا على تلاميذ « كونفيشيوس » بعد أن روى له أستاذه عن الحكيم الأكبر ما رواه شفهيا من الآراء والأفكار بنصوصها وعباراتها . ويحتوى هذا الكتاب على مجموعة من آراء مقتضبة وجوامع كلم ، ومحادثات مع التلاميذ وملاحظات هؤلاء على آراء أستاذهم وهلم جرا . وليس لهذا الكتاب — على سعة ذيوعه وتداوله — أهمية فلسفية عظمى

أما الكتاب الثانى وهو « تا — هيو » أو الدراسة الكبرى فهو دراسات وجيزة لبعض الآراء والمشاكل الفكرية فى صورة أمثلة وحكم ، وقد كتبه « تسيه سى » حفيد كونفيشيوس » ولكن « تشو — إى » أحد شراح « كونفيشيوس » الصينيين فى القرن الثانى عشر يؤكد أن النصوص الأصلية لهذا الكتاب قد وجدت مثبتة بخط الحكيم نفسه وأن حفيده لم يزد على شرحها والتعليق عليها . ولا يرى العلماء في هذا الرأى بأساً إذ يحتمل أن يكون هذا الحفيد قد استولى على نصوص جده .وأضاف إليها مذكرات من معارفه الخاصة المتواترة في الأسرة عن هذا الجد . ويرى بعض آخر من الباحثين أن هذا الحفيد لم يجد فى الغالب نصوصاً مكتوبة من هذا السفر ، وإنما وجد روايات شفوية مأثورة عن جده فأثبتها بأسلوبه . وأما الذى شرحها وعلق عليها ، فهو « تسانج — تسيه » أحد تلاميذ « كونفيشيوس »

أما الكتاب الثالث ، فهو « تشونج — يونج » وهو أهم كتب هذا الحكيم الفلسفية ، لأنه هو الكتاب الوحيد الذى يحوى مذهبه ، والمؤلف الجوهرى الذى يعتمد عليه الباحثون فى فهم المدرسة « الكونفيشيوسية » ، ويتكون هذا الكتاب من مقدمة واثنين وعشرين فصلا . فأما المقدمة فقد كتبها حفيده السابق الذكر ، وهى مجموعة وافية من الآراء الأساسية فى أخلاق « كونفيشيوس » سمعها هذا الحفيد من جده مباشرة فأثبتها فى المقدمة وشرحها شرحاً مفصلا فى بقية الكتاب

ويرى « ألين » الانجليزى و « فون إركس » الألمانى أن هذا الكتاب ليس إلا مجموعة مشوهة من « تاويسم » ؛ فأما الأول فيرى الأستاذ زانكير أن من العبث الرد عليه ، لأنه هو الذى زعم أن « كونفيشيوس » أسطورة ، وأما الثانى فالسبب الذى خدعه وأوقعه فى هذا الخطأ هو أنه وجد أن هذا الكتاب يحتوى على شيء غير يسير من التنسك الذى يشبه ميول « لاهو — تسيه » فاستبعد صدور هذه الآراء عن « كونفيشيوس » ، ولكن هذا خطأ بحت ، لأن « كونفيشيوس » ليس مادياً جافاً ولا نفعياً أثراً ، وإنما هو حكيم جليل قمين بأسمى الأخلاق

وأما الكتاب الرابع فهو مجموعة كتب « مانسيوس » السبعة التى سنعرض لها عند حديثنا عن هذا الفيلسوف

منهجه وتأثيره

يشبه منهج « كونفيشيوس » منهج « سقراط » كثيراً ، إذ هو يحاول أن يرشد تلاميذه إلى الحقيقة ، ولكن لا عن طريق التقليد والتحفيظ ، بل عن طريق البحث الشخصى الذى يتدرج من المحسات إلى المعقولات ، ويصعد من الماديات إلى المعنويات ؛ فتارة يلمح إلى البرهان الحق تلميحاً خفياً ، وأخرى يشير إلى تناقض الباطل إشارة غامضة ثم يقود التلاميذ فى طريق المحاورة قيادة منطقية محكمة إلى أن يعثروا على الحق بأنفسهم أو يهدموا الباطل بمجهوداتهم الشخصية المراقبة بارشاد الأستاذ . وفى هذا يقول : « أنا لا أعَلِّم من لا يشتهي أن يفهم ، ولا أساعد على الكلام من لا يحاول أن يوضح أفكاره [1] »

ومن منهجه أيضاً أنه كان يضع أمام تلاميذه مُثُلاً حية من أخلاق الحكماء والملوك السابقين أو من المأثورات الدينية العالية أو القصائد الشعرية المفعمة بالفضيلة أو الحوادث التاريخية التى تصلح لأن تتخذ نماذج للسمو والنبل ، وكان يسلك هذا المنهج فى تعليم تلاميذه الفلسفة والأدب والفن والأخلاق

ويروى المؤرخون أن تلاميذ هذا الحكيم الذين استفادوا من منهجه بلغ عددهم فى حياته ثلاثة آلاف تلميذ ، وأن عدداً كبيراً من بين هؤلاء التلاميذ شغلوا فى الدولة مناصب هامة وأنهم كانوا العنصر الأساسى للعلماء والأدباء الذين حكموا الصين أكثر من ألفى سنة ، لأن « كونفيشيوس » قد أحسن تأديبهم فلم يخلق فيهم الميل إلى الانزواء واليأس ، وإنما بث فى نفوسهم روح الاصلاح والانتصار والسيادة ، ولهذا لم تكن حلقات دروسه مقصورة على التلاميذ ، بل كانت تضم بينها عدداً ضخماً من كبار النبلاء والارستوقراطيين الذين وجدوا فيه أكبر محقق لعظمة الصين المنشودة فدفعتهم وطنيتهم إلى الاغتراف من نمير علمه الصافى وإلى محاكاة أخلاقه السامية النبيلة

وفى الحق أن كونفيشيوس يجب أن يعد فى طليعة أفذاذ الرجال الذين خلقوا المدنية الصينية ، بل المدنية العالمية ؛ إذ هو الذى أنشأ السياسة الصينية القيمة ، وهو الذى وضع قواعد أخلاق الأسرة على الأسس الفلسفية المحترمة ، وهو الذى قسم الفلسفة العملية إلى فروعها الثلاثة : الأخلاق الشخصية ، وتدبير المنزل ، وسياسة الدولة أو المدينة الفاضلة ؛ فسبق بذلك أرسطو وأفلاطون كما سنشير إليه حين نعرض لأخلاقه النظرية . وليس هذا فحسب ، بل هو الذي رفع علم التاريخ فى الصين إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم الراقية ، وهو أول من أناروا سبيل علم المنطق للذين أتوا بعده فزادوا عليه ماجعله قمِناً بالاحترام والاجلال

غير أنه على الرغم من ذلك كله لم يصادف في حياته نجاحاً باهراً كما أسلفنا . والسبب فى ذلك الاخفاق هو أخلاقه المتينة التى لم تسمح له أن يتملق أعظم الملوك والأمراء مرة واحدة فى حياته ، ولا أن يحني رأسه إلا للحق وحده ، فضايقت هذه الأخلاق القويمة المبطلين من الطغاة والمتجبرين . وكانت نتيجة ذلك أن ربح فيلسوفنا الفضيلة وخسر الحياة المادية

على أن الشعب لم يلبث أن تنبه إلى حكمة « كونفيشيوس » الخالدة القائلة : « إن الجوهر الأساسى العملى للشعب يجب أن يكون هو الأخلاق ، وإن سياسة الدولة لاتنتج نجاحاً حقيقياً إلا إذا أسست على الأخلاق »

لما تنبه الشعب إلى هذه الحكمة وآمن بها وأخذ يطبقها تطبيقاً عملياً دقيقاً أخذت أحواله العامة تتحسن شيئاً فشيئاً حتى بلغت الأوج . والفضل فى ذلك كله راجع إلى التماسك الأخلاقى الذى وضع هذا الحكيم بذوره فى تعاليمه القيمة الجليلة

« يتبع »

محمد غلاب

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٧

دراسات فى الأدب الإنكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تتمة

خلاصة الفردوس المفقود

تقع هذه الملحمة بعد تنقيحها فى اثنى عشر جزءاً ، وقد نقلها العلامة دريدن والشاعر الفذ (لوريت Laureate) إلى أوبرا تمثيلية بطولية ، وذلك بإذن مؤلفها عام ١٦٧٤ ؛ وجعلا عنوانها « The State of Innocence » وإليك خلاصة موضوعها :

(١) يحتوى الجزء الأول من هذه الملحمة على خلاصة موجزة لها . وبعدها يصف ملتون كيف أن الشيطان يتمرد على الله تعالى مع طغمة من الملائكة الأشرار ، فيسقطهم الله فى جهنم المتقدة حيث يفقدون الوعى مدة وجيزة ، وبعدها يثوبون إلى رشدهم ، ويقف إبليس فيهم خطيباً ، ويذكرهم بالنبوة التى جاء فيها أن الله سيخلق خليقة جديدة وعالماً جديداً ، ويقترح عليهم أن ينتقموا من هذه الخليقة الجديدة التى سيخلقها الله — لجدهم الضائع

(٢) فيعقد الملائكة الأشرار وعلى رأسهم إبليس اجتماعاً هاماً فى مجلس إبليس الخاص Pandemonium ويدرسون فيه هـذا الاقتراح وطريقة تنفيذه ، فيقر أمرهم على إيفاد أحدهم إلى ذلك العالم لينشر فيه روح الشر ، ولينصب فيه فخ المكيدة ، فيتعهد إبليس أمر هذه الرحلة الخطرة ، ويشرع بها وهو غير عابئ بما فيها من الصعوبات الجمة ، فيصل أبواب الجحيم وقد سهر على حراستها وحشان غريبان مخيفان ، فيتخطاها بكل صعوبة وجهد . وبعد سفر طويل يواجه ذلك العالم الأرضى الجديد

(٣) ثم يبصرُ اللهُ تعالى ، وهو جالس على عرشه الشيطان وهو مسرع نحو ذلك العالم الجديد ، فيشفق على خليقته الجديدة من شره ، ولكنه يعدُ بإرسال ابنه فدية . أما الشيطان فيواصل السير حتى يصل إلى الشمس ويتقابل هناك مع « أوريال » — ملاك الشمس — فيرشده هذا إلى طريق العالم الجديد الذى جعله قبلته ، فيسلكها حتى يصل إليه ، وهناك يستريح على قمة أحد الجبال

(٤) ثم يبحث عن طريق الجنة ، فيتسلل إليها بعد أن يتقمص جسم « غراب المـاء Carmarant » وهناك يجثم على غصن من أغصان شجرة الحياة ، ويأخذ فى التطلع حوله ، فيدهشه جمال الجنة الرائع ، ثم ينظر آدم وزوجه حواء أثناء رجوعهما من صـلاة العشاء للاستراحة

(٥) وفى الليل ترى حواء حلماً مزعجاً ، وتقصه فى الصباح على آدم فيفسره هذا بما يسكن من روعها ، ثم يذهبان للصلاة وبعدها يشرعان فى الشغل فى الجنة

(٦) ، (٧) ، (٨) ثم يرسل الله الملاك رفائيل إلى آدم فيحذره من مكيدة إبليس ، ويدور بينهما حديث طويل جداً

(٩) ويعلم حارس الجنة بوجود إبليس فيطرده منها ، ولكنه يرجع إليها ثانية فى الليل بشكل الضباب ، ثم يتقمص جلد حية . وفى الصباح التالى تقترح حواء على آدم أن يشتغل كلٌّ منهما منفرداً عن رفيقه فيلبي اقتراحها ، فيجد الشيطان الفرصة سانحة لتنفيذ مكيدته ، فيسير إلى حواء ويغريها أن تأكل من الثمرة المحرمة ، فتأكل وتناول بعلها فيأكل هو أيضاً

(١٠) فيحكم عليهما الله تعالى بالعذاب والموت ويطردهما من الفردوس . أما الشيطان فيرجع إلى بطانته مسروراً جذلاً

(١١) ثم يندم آدم وحواء على إثمهما ، ويطلبان منه تعالى الصفح ، فيصفح عنهما ولكنه لا يرجعهما إلى الجنة ثانية

(١٢) بل يعدهما بإرسال ابنه ليكفر بموته عن خطيئتهما

أشعاره وشاعريته

قال العلامة « جون دريدن » وهو من معاصرى ملتون : لقد جمع ملتون فى شعره بين الجيد والردئ ، وبين الجليل والمبتذل ، وذلك لأنه كثيراً ما كان يعتسف النظم على غير حضور بديهته أو شبوب عاطفته ؛ ولكنَّ هذا لا يضع من مكانته كشاعر فذّ ومفكر نابغ ؛ إذ ليس من الضرورى أن يكون الشاعر حاضر الخيال متوقد العاطفة فى كل مناسبة يشعر

فيها . وهل من الضروري أن تكون الشمس دائمة الاشراق والنور لنستدل على وجودها في الكون ؟؟؟ ولست أرى مثيلاً لهذا القول إلا رأى سلم الخاسر في شعر أبي العتاهية إذ يقول : شعرُ أبي العتاهية كساحة الملوك ، فيها الدرُّ والساقط ...

ولئن لم يكن ملتون متوثب الشعور في جميع أشعاره ، لقد جمع في شعره بين إحساس العاطفة ورزانة العقل ، أو قل بعبارة أوضح بين الشعر كفن والفلسفة كميزان لجميع الفنون والعلوم . تدل على ذلك قصائده العديدة التي تحمل خلال جميع أبياتها جرثومةً من مسحة العقل وأثراً من عمق التفكير . وما أشعاره في الحقيقة إلا قبس من النور يومض في عتمة تلك الحروب المذهبية السياسية الحالكة التي اندلعت في انكلترا بسبب تحطيم الأرستقراطية على صخرة الديمقراطية الناشزة . وهل أوحى إلى ملتون بملحمة الفردوس المفقود غير ذلك النزاع الذي خاض غماره ؟ أم هل كانت أشعار ملتون جميعها إلا صورة جلية تتبين منها حقيقة ذلك النزاع ؟

ابتدأ ملتون يعبث بالشعر ولما يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر . ولئن كانت أشعاره إذ ذاك خالية من ابتكار المعنى إلا أنها كانت — بالنسبة لصغر سنه — تحمل بين أسطرها جراثيم النبوغ والتفوق . فهذه قصيدته الشهيرة المعروفة بـ The Ode Of Nativity والتي نظمها عام ١٦٢٩ تكاد تكون لروعتها وجمالها خير قصيدة غنائية في الشعر الانكليزي ، بل هي من فتًى حدث كملتون لم يبلغ بعد حدَّ نضوج العقل والعاطفة ، أروع قصيدة على الاطلاق ...

وفي عام ١٦٣٣ نظم ملتون قصيدتين رائعتين وهما : (١) L'allegro و (٢) Il Penscroso ، وقد أجمعت آراء الأدباء على أنهما خير نموذج للجيد من شعره ، وذلك لما فيهما من الدقة البالغة في التصوير والحرارة الملتهبة في الشعور . وفي عام ١٦٣٤ نظم قصيدة القومس Comus وهي قصة شعرية دراماتيكية ، يكثر فيها ظهور الأحراج والأشباح الغيبية ، Suqeruetural Beings ، ولكنها ليست من دقة الفن بقياس قصص شكسبير الدراماتيكية التي من نوعها — كدرامة كما تحب مثلا — وذلك لأن شكسبير كان شاعراً بالفطرة ، وبارعاً في تمثيل سوءات المجتمع وعاداته ؛ وهو إذ ينظم القصيدة فكأنما يصور بالألفاظ عواطفه الحساسة ، وينحت في صخر اللغة مشاعره الوثابة ، بينا كان ملتون — مع اعترافنا به كشاعر فذ — مبالغاً في التصنع ، ومسرفاً في إجهاد القريحة ، واستفزاز المخيلة ، فمانيه — في معظمها — تكاد تقرب من الابتذال في شيوعها ، وأخيلته إلا القليل منها مستكرهة على الشعر ، ثقيلة على الطبع لشذوذها . وليس أدل على هذا من مناجاة كومس لليدى !! ولعل خير قطعة في هذه القصيدة هي تلك التي تمثل الشجار بين ليدى وكومس ، وذلك لأنها قطعة فنية من نفس ملتون الثائرة المتمردة التي تهزها الثورة أكثر مما تحركها الدعة والطمأنينة ، ولأنه في هذه القطعة إنما ينفض علينا مكنون طويته ويصور لنا دخيلة نفسيته . وإليك تحرير المعنى في هذه القصيدة :

يذهب أخوان وأختهما إلى حرج عظيم كثيف ، فتضل الأخت طريقها في هذا الغاب ، فيتركها أخواها هائمة على رأسها تائهة في طريقها ، ولا يهتمان ألبتة بما تقاسيه في ذلك الحرج المخيف من مرارة الجوع ، وحرارة العطش ، وألم الوحدة ، ووحشة الغابة التي ترتعد منها الفرائص . ويذهبان بعيداً عنها في جمع ثمر العليق ؛ حتى إذا تضيَّفت الشمس للمغيب عادا إلى بيتهما تاركين في الغابة القفر أختهما الوحيدة ضحية للألم والجوع ، وفريسة للوحوش والسباع

فأنت ترى أن مثل هذا التخيل الفسل المكروه ليس من الحقيقة في شيء ، إذ ليس من الممكن للطبع البشريِّ مهما أوغل في التحجر والقساوة أن يتصور وقوع مثل هذه المأساة الخيالية الملفقة !!

أما الصونيتس Sonnets فقد كتبها في فترات متقطعة ومناسبات كثيرة . ويذهب جونسون في نقده للتون إلى أن — الصونيتس — ليست من الفن الشعري بدرجة تستحق أن توضع في غربال النقد . ولكنها مع ذلك عذبة اللفظ طلية الأسلوب . وفي عام ١٦٤٤ ألف الـ Areopagitica وهي رسالة نقدية دافع فيها عن حرية الطبع والنشر دفاعاً قيماً في وقت بلغ فيه التزمت حداً عظيما . أما الفردوس المسترجع فقد ألفه عام ١٦٧١

وهو يمتاز عن بقية مؤلفاته الشعرية بميزات سامية كثيرة سنوردها في مقالاتنا الآتية التي سنكتبها عنه ، وفي ذلك العام أيضاً ألف قصيدة أل Samson Agonistes وسنعرض لها أيضاً فيما بعد

أسلوبه

لم يكن أسلوب ملتون على نمط واحد في جميع أشعاره ، فقد كان مشرق الديباجة سلس العبارة حيث تكون الفكرة مختمرة في رأسه ، والعاطفة متوثبة في صدره ، ولكنه حين كان يعتسف النظم كانت تجيء أشعاره ملتوية العبارة ، غامضة المعنى ، ووعرة الأسلوب

وتدل أشعاره العديدة التي كتبها بخط يده والتي لا تزال محفوظة في مكتبة كلية ترنتي في كمبردج على أنه كان مولعاً بصيد أوابد الكلمات ، وإستقصاء غريب الألفاظ . ومما تجب الإشارة اكتظاظ أسلوبه بالكلمات اللاتينية المهجورة

قال العلامة ماكولى في مقالته عن ملتون : ألم تسمع قط بتأثير الشعر السحرى وبتياره الكهربائي العنيف ؟ ألم تسمع قط بالأسلوب الرائع الذى يقيد عليك مشاعرك ويهز منك جميع أوتار حسك ؟ أما سمعت قط بالشعر الذى يأسر القلب ، ويذيب العاطفة ؟ إن هذه الصفات جميعها إن هي إلا من مدلولات شعر ملتون وأسلوبه ... لم يكن ملتون بارعاً في ابتكار المعاني ، إلا أنه كثيراً ما كان يتناول المعاني المبتذلة الشائعة فيسبكها في قالب لفظي متين يزيد في روعتها وجمالها ويجعل منها أفكاراً سامية تسحر العقل وتذهب اللب . على أنك لو بدلت كيفية صياغتها اللفظية ، أو حورت ولو قليلا أسلوبها الذى صيغت به لما كان لها أى أثر في نفسك أو تقدير في قياسك

خاتمة حياته وموته

لقد عاش ملتون وهو في عنفوان الشباب عيشة مترفة رخية ، شأن أبناء ذوى اليسر والجاه ، ولكن الدهر أبى ألا أن يقلب له ظهر المجن ، ويجرعه كأس الشقاء المرة حتى الثمالة . ففي عام ١٦٥٢ غشيت إحدى عينيه ، ثم ابتدأت المصائب تنثال عليه بغير حساب ، فقد شرد وطرد وغرم في أمواله وأملاكه ثم أصيب بداء النقرس . ونفى خارج وطنه وأهله أكثر من مرة . وأخيراً عزل من منصبه السياسى الذى كان يتبلغ براتبه . وفي عام ١٦٦٢ فقد عينه الأخرى فتم عماه ؛ إلا أن هذه المصائب كلها لم تضع من عنجهيته ، ولا فلت من شباة نفسه ، بل صادفها وتقبلها بقلب وادع مطمئن وصدر عامر بالإيمان والثقة بالنفس . ولئن كان لها من أثر يذكر في نفسه فذلك أنها شحذت قريحته وأرهفت إحساسه ، ووثبت شعوره ، وزادته جلداً على الدرس ، ومثابرة على الاجتهاد

تزوج ملتون ثلاث زوجات . والراجح أنه لم يكن موفقاً في غرامه ولا سعيداً في زواجه . وقد توفى في شهر نوفمبر عام ١٦٧٤ في مزرعة بنهل تاركاً وراءه زوجه الثالثة ، وثلاث بنات . وقد قبر في مقبرة St. Jiles. وبعد وفاته بسنين عديدة أقيم له نصب تذكارى في وست منستر أبى . وهكذا بات ملتون مزملاً بنبوغه وشهرته ، تئن رفاته في جدثها من ظلم المتقصين المغرضين ، وغلو الناصرين المفرطين .

خليل جمعة الطوال

أسانيد البحث

1 — Milton — Paradise lost Comus.
2 — Johnson — Life of Milton - 1779.
3 — Hazlitt — Lecture on Shakspeare and Milton
4 — Laing — A History of English Literature
5 — Brooke — English Literature.
6 — Macaulay — Essoy on Milton - 1825
7 — W. H. Stephens - Introduction to the Study of English Literature.
8 — Hughes - Introduction to the Study of Milton poetry and prose.

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٩٣ — لا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

فى (تزيين الأسواق) من لطف الفقيه أبى بكر محمد [١] ابن داود (الظاهري) ورقته أنه كان يدخل الجامع من باب الوراقين فهجره أياماً. فسئل فى ذلك فقال: دخلت يوماً فرأيت متحابين يتحادثان، فتفرقا مذ رأيانى، فآليت ألا أدخـل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

٢٩٤ — نموذج من نثر أبى تمام

فى (رهبة الأيام): كتب أبو تمام مع أخيه سهم بن أوس إلى على بن اسحق (والي دمشق وأعمالها) كتاباً يذكر فيـه حرمته به، ومنازلته إياه فى الفندق [٢] فى (سُرّ من رأى [٣]) وضرب له فى كتابه مثلا فقال: «ومثلي مع الأمير ـ أعزه الله ـ مثل عجوز كانت بالكوفة من جَرم قضاعة، وكان الوالى على الكوفة رجلا من عُكل. فأجرم ابن العجوز جرماً، فحبس، فتعرضت العجوز للوالي على ظهر الطريق، وقالت: أصلح الله الأمير، لي حاجـة، ولي بالأمير وسيلة. فقال ما حاجتك؟ وما وسيلتك؟ قالت: حاجتي أن تطلق ابنى من محبسه، ووسيلتى إليك أن الشاعر جمعنى وإياك فى بيت السوء حيث يقول:

جاءت به عُجُزٌ مقـابَلةٌ ما هُنّ من جَرم ولا عُكل [١]

وأنا امرأة من جرم، وأنت رجل من عكل. فأمر بإطلاق ابنها. وأنا أقول: وسيلتى إليك (أيها الأمير) منازلتى إياك في الفندق بسر من رأى مع فتور الماء، وكثرة الذباب» وكتب إليه فى أسفل الكتاب قصيدة نونية [٢]

٢٩٥ — إن كان وضاح إلا مفتياً لنفسه

فى (أغانى) أبى الفرج قال يوسف بن الماجشون [٣]: أنشدت محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن:

إذا قلت يوماً: نوّليني، تبسمت وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم!

فما نوّلت حتى تضرّعت عندها وأعلمتها ما رخص الله فى اللمم [٤]

فضحك وقال: إنْ كان وضاح إلا مفتياً لنفسه!

٢٩٦ — أفتراك مني تفلتين

كان العباس بن على (عم المنصور) يأخذ الكاس بيده ثم يقول لها: أما المال فتبلعين، وأما المروءة فتخلعين، وأما الدين فتفسدين! ويسكت ساعة ثم يقول: أما النفس فتسمّحين، [٥] وأما الهم فتطردين، أفتراك مني تفلتين؟ [٦] ثم يشربها...

٢٩٧ — أربعة أحاديث

قال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود (سليمان بن الأشعث الأزدى السجستانى) يقول: كتبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمس مائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعنى كتاب السنن) جمعت فيه (٤٨٠٠) حديث

---

(١) فى (النجوم الزاهرة): صاحب كتاب الزهرة وكان يلقب (بعصفور الشوك) لنحافته وصفرة لونه. وفي (الوفيات): لما توفى أبوه (داود الظاهرى) جلس فى حلقته استصغروه، فدسوا له رجلا وقالوا له: سله عن حد السكر فسأله عن السكر ماهو، ومتى يكون الانسان سكران فقال: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم. فاستحسن ذلك منه، وعلم موضعه من العلم. ولما بلغت وفاته الامام بن سريج كان يكتب شيئاً فألقى الكراسة من يده، وقال: مات من كنت أحث نفسى وأجهدها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته

(٢) مولدة وهي فى النثر والشعر كثيرة، ويقال: فنتق

(٣) بين بغداد وتكريت على شرق دجلة، وفيها لغات. وقالت العامة والشعراء: سامرا، سامراء، سر من راء. والنسبة: سرمرى، سامرى، سرى، ومن هذه الحسن بن على بن زياد المحدث السرى

(١) عجز: من جمع عجوز: قال الأزهرى: العرب تقول لامرأة الرجل (وإن كانت شابة) هى عجوزة، وللزوج (وإن كان حدثاً) هو شيخها. قلت لامرأة من العرب: حالي زوجك فتذمرت وقالت: هلا قلت شيخك؟ (المقابل) بفتح الباء: الكريم النسب من قبل الأبوين

(٢) منها البيتان المشهوران (أولى البرية حقا). وفى (الهبة): لما قرأ الكتاب حضر سعيد بن عون المعروف بـ (الشعبانى) وكان متمكنا من على بن اسحق، ولم يكن لأبى تمام محباً فأوقع فيه، وحرم سهم بن أوس

(٣) لقب أبى سلمة مولى آل المنكدر، بضم الجيم والشين، وفى حاشية المواهب بكسر الجيم وضم الشين، معرب (ماه كون): لون القمر (التاج)

(٤) فى الكشاف: اللمم ما قل وصغر. والمراد الصغائر من الذنوب. الخدرى: اللمم هى النظرة والغمزة والقبلة. الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً

(٥) يريد تجعلينها سمحة

(٦) فلت وفلته، وافلت وافلته: كلاهما لازم متعدل

ذكرت الصحيح [١] وما يشبهه ويقاربه . ويكفي الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله — عليه السلام — : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى [٢]) ؛ والثاني قوله : (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) ؛ والثالث قوله : (لايكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه [٣]) ؛ والرابع قوله : (الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مُشْتَبِهات [٤] لا يعلمها [٥] كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ [٦] لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يواقعه [٧] . ألا وإنَّ لكل مَلِك حمى ، ألا وإنَّ حمى الله فى الأرض محارمه [٨] . ألا وإنَّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : إلا وهى القلب [٩])

٢٩٨ — فالطباع جوامح

أبو الجوائز الحسن بن على بن محمد بن بارى :

دع الناس طرّا واصرف الود عنهمُ
إذا كنت فى أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر رَنْقه صفاء بنيه؛فالطباع جوامح [١٠]

٢٩٩ — انه الله ! ! !

فى (تاريخ بغداد) : قال أبو القاسم عبيد الله بن سليمان : كنت أكتب لموسى بغا ، وكنا بالرى ، وقاضيها إذ ذاك أحمد ابن بديل ، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك كان فيها سهام ويعمرها ، وكان فيها سهم ليتيم ، فصرت إلى أحمد بن بديل وخاطبته فى أن يبيع علينا حصة اليتيم ويأخذ الثمن ، فامتنع وقال : مابااليتيم حاجة إلى البيع ، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه فيحدث على المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه . فقلت فإنا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها ، فقال: ما هذا لى بعذر فى البيع . والصورة فى المال إذا كثر مثلها إذا قل. فأدرته بكل لون وهو يمتنع ؛ فأضجرنى فقلت له : أيها القاضى ، إلا تفعل فإنه موسى بن بغا !

فقال لى : أعزك الله ، إنه الله تبارك وتعالى !!

فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك وفارقته ، فدخلت على موسى فقال : ما عملت فى الضيعة ؟ فقصصت عليه الحديث ، فلما سمع : « إنه الله » بكى وما زال يكررها ثم قال : لا تعرض لهذه الضيعة وانظر فى أمر هذا الشيخ الصالح ، فإن كانت له حاجة فاقضها ، فأحضرته وقلت له : إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة وهو يعرض عليك قضاء حوائجك فدعا له وقال : هذا الفعل أحفظ لنعمته ، ومالى حاجة إلا إدرار رزقى ، فقد تأخر منذ شهور أضرنى ذلك . فأطلقت له جاريه

٣٠٠ — كان ينسج الشمال باليمين

قال على (رضى الله تعالى عنه) للأشعث بن قيس الكندى : إنى لأجد بنَّة [١] الغزل منك . فسئل (رضى الله تعالى عنه) فقال : كان أبوه ينسج الشمال [٢] باليمين [٣] ...

---

(١) أي الذى صح عنده

(٢) الذى نواه أو نيته وكذا لكل امرأة مانوت لأن النساء شقائق الأقوام (القسطلانى)

(٣) وفي جامع البخارى وغيره : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

(٤) أى شبهت بغيرها مما لم يتبين به حكمها على التعين (القسطلانى)

(٥) لا يعلم حكمها

(٦) استبرأ : طلب البراءة

(٧) يقع فيه

(٨) المعاصي التى حرمها

(٩) القلب : هو محل العقل عندنا . وقال أبو حنيفة فى الدماغ (القسطلانى) والعقل عند الشافعية فى القلب

(١٠) جمح الفرس براكبه : اعتزه على رأسه وذهب جريا غالباً لايملكه ، وجمحت السفينة : تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، وفلان جموح وجامح : راكب لهواه (الأساس ، اللسان)

(١) البنة — بالفتح — الريح الطيبة وقد تطلق على المكروهة والجمع بنان بالكسر (النهاية)

(٢) الشمال — بالكسر — جمع الشملة — بالفتح والشملة : كساء دون القطيفة والشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به (التاج ، اللسان)

(٣) قال ابن منظور : قوله من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة وفصاحة . وقال صاحب (النهاية) : رماه بالحياكة . (قلت) . أنى إنما رويت القول أملوحة ، ومكانة الحرفة مكانتها ، وكان اليمان ينسج ، والحجازي يتجر ، وإذا رمى الثانى الأول بنساجته رمى الأول الثانى بتجارته . وكلاهما يعيب — إما فعل — غير معيب . والرجلان فى هذا المجتمع الانسانى عاملان . وما الشرف إلا فى العمل ، والنقص كل النقص فى البطالة والكسل . واليقين أن علياً كان يداعب الرجل ، وما قوله في الحرفة إلا لقول عمر : رووا : « كان عمر إذا نظر إلى ذى سيماء سأل : أله حرفة ؟ فان قيل : لا . سقط من عينه » وعلى كعمر كلاهما عارف بالله وبالدنيا ، وكلا هذين الصاحبين العظيمين (رضوان الله عليهما) خريج ذلك النبي الاعظم (صلى الله عليه وسلم)

في أعقاب الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

أَلْقَى على الدوح فتورَ الكرى
فلاحَ كالناعِسِ
لا تستبينُ العينُ فيما ترى
من أفقه العابس
غيرَ الأسى فى جوه منذرا
بليلَى المكتئب الدامس

* * *

يَكْرُبُني فى الأُفْق هذا القطوبْ
وهذه الكُدْرَةُ فى لونه
وتُجْفِلُ النفسُ لهذا الغروبْ
وحُمْرَةُ المحزون فى جفنه
يا وَيْلتَا تلك الرؤَى أفرختْ
فى قَلْبِيَ المستَسْلِمِ اليائس!

* * *

أسْلمَنِى للوجْد هذا الخريف
فى لَفْتةِ الراحِل
وأنكرتْ أذْناى هذا الحفيف
من عُودِهِ الناحِلِ
يَلْمَحُ لي منه خيالٌ مُطيفْ
لكل شىء هالِكٍ زائِلِ

* * *

أوْرَاقُه نَهْبُ رياح المساء
تُلْقَى بها مُصْفَرَّةً ذابِلَهْ
تسوقُها مُعْجَلةً للفناء
قافلةً فى إثرها قافلَهْ
تطايرتْ كما تطيرُ المنى
مِن لمحةِ الوَهْمِ إلى الباطِلِ

* * *

حطَّتْ على الدَّوْح بنات الهديل
ساهمةً عانيهْ
للشَّفَقِ الباكى بهذا الأصيل
ما فتئتْ رانيه
طالعُها منه شتاء طويلْ
عِشَاشُها فى كفه واهيه

* * *

قد أشبهتنى الوُرْقُ فى غُمَّتِي
لكنها تذهل عن أمسها
وكل شىء مُوقِظٌ مُهجتى
حتى رياح الليل فى همسها
أسْمَعُ فى هسيسها أنَّةً
بالأمسِ كانت نَغْمَةً شادِيَهْ

* * *

شَبَّابةُ الراعى بأنغامه
فى مِسْمَعى صاخِبَهْ
يا لاعباً طيوف أحلامه
خافقةً لاعبه
نَبَّهتَ القلبَ لآلامه
إذ بَعَثَتْ أحلامَهُ الذاهبه!

* * *

يا ليتني أذهل عما مضى
أوْ أرْعَوِي بَعْدَ فواتِ الأمَلْ
يا ليت لى مثلك هذا الرضى
يا ناعماً ما ذاق إلا الجذَلْ
تَغَنَّ ما شِئْتَ ودع لى الجوى
هواكَ لمْ تَعْلَقْ بهِ شائبَهْ!

* * *

يَسْتَيْقظ القلبُ إلى وجدهِ
فى أُخْرَيات الخريف
يَعُودُ ما لم يَنْسَ من عهده
فهْوَ وَجيعٌ لهيف

تَغَرَّبَ «الطائرُ» عن عُودِه
وخَلَّفَ القلبَ لهذا الوجيف

* * *

مَا رَوعةُ الكونِ وما سِحْرُهُ
وكلُّ حُسْنٍ باعث للشجَنْ؟!
هذا الخريفُ هاجنى ذكره
هل أرْتجى فى ظِلِهِ من سكن؟؟
تَغَرَّبَ الطائرُ لم ألْقَهُ
فى مَرْبَعٍ بَعْدُ ولا في مَصيف!

* * *

يا سائلاً يُنْكِرُ أشْجَانِيهْ
ما كُنْتُ بالمدَّعى
يا صاحِ لو كُنْتَ تَرى ما بِيَهْ
بكيتَ حظِّى معى
تبَسُّمِي يَحْجُبُ أتراحِيَه
كالرَّمْسِ تحت الزَّهرِ المُمْرِعِ!

* * *

ما أنا بالشاكى ولكنها
أُغنيةٌ ضاقت ضلوعي بها
أُغنيةٌ صاغ الجوى لحنها
وأُجْبرَ القَلْبُ على سَكْبِها
يا أيُّها المُنْكِرُ أشْجَانِيهْ
وُقِيتَ ما أُضمِرُ فى أضلُعى

* * *

قد أغرق الدَّوْحَ فتُورُ الكرى
فلاحَ كالناعِس
لا تستبين العينُ فيما ترى
من أفقِهِ العابس
غيرَ الأسى فى جوِّه منذرا
بلَيْلِيَ المكتئبِ الدامِسِ

الخفيف



فرانز شوبير

١٧٩٧ – ١٨٢٨

للأديب عبد الرحمن فهمي

كانت حياة شوبير القصيرة حياة كفاح قضاها تاركاً للأجيال التي بعده حظاً من المتعة أوفر مما كان لنفسه . وهو أشهر الموسيقيين النمساويين ولد بفينا عام ١٧٩٧ ولا تزال عاصمة النمسا إلى اليوم تحيي ذكرى ميلاده

وأبوه ابن فلاح من منطقة مورافيا كان يدير مدرسة صغيرة في قريته ويستعين بإيرادها على عول أسرة كبيرة كان فرانز من بينها

وسيرة فرانز إحدى سير العظماء الذين أنجبهم العالم . بدأ أبوه يعلمه العزف على آلة موسيقية مماثلة (للربابة) وكانت أسرة شوبير تمتاز بحذق العزف على الآلات الموسيقية فنبغ في هذا الفن نبوغاً جعله يفوق إخوته وهم أكبر منه سناً . فلما بلغ السنة الحادية عشرة بعثت به أسرته إلى مدرسة تابعة لكنيسة صغيرة ليتعلم بها الترتيل ، وتقدم معه إليها أولاد عديدون كانوا يتسلون انتظاراً لدورهم في امتحان القبول بالتهكم على فرانز لصغر سنه ورثاثة ملبسه ، ولكنه بعد أن قبل بالمدرسة استبدل بلباسه لباس المدرسة الرسمي الأنيق في حين لم يقبل بها الطلاب الآخرون لفشلهم في الامتحان

وكانت هذه المدرسة مكاناً طريفاً للدرس ، يكون تلاميذها فيما بينهم مجموعة موسيقية (أركسترا) يمرنون كل يوم في الدرس . وكان فرانز في أول الأمر غير ظاهر بين زملائه الذين كانوا جميعاً يكبرونه سناً ، ولكن حذقه في الفن لفت إليه نظر رئيس الفرقة وهو صبي يدعى سبون ويقول عنه : (وبحثت عن هذا العازف الحاذق فوجدته صبياً صغيراً على عينيه منظار يدعى فرانز شوبير) ومن ثم أضحى سبون وفرانز صديقين حميمين

واستطاع فرانز يوماً أن يؤلف قطعة موسيقية ، إلا أنه عجز عن الحصول على الورق الخاص بكتابة الموسيقى (النوتة) لفقره ، فأعانه صديقه بالمال . وهكذا بدأ تاريخ الموسيقي الصغير . وكانت غرفة التمرين بالمدرسة قاسية البرد شتاء ، والطعام لا يملأ بطون التلاميذ لعدم كفايته ، فهو يقدم في وجبتين ضئيلتين إحداهما عند الظهر والأخرى في الثامنة مساء . وعلى رغم ذلك استطاع فرانز في فترة الدراسة أن يخرج عدة (نوتات) موسيقية لاشك في أنها كانت تظهر أحسن من ذلك لو أن أساتذته أخذوه بالنظريات الموسيقية التي أهملتها المدرسة في تعليمها وتركت لهذا العبقري الصغير الحرية في الجموح دون أن تصقله بتغذية روحه الفني بالنمو المنتظم المطرد ؛ غير أن أخذه الدرس على ساليري فيما بعد — وهو موسيقي مشهور — جعل أسلوبه في هذا الفن ينضج وينمو وينتظم

ولا ننس أنه أتى على شوبير حين من الزمن بعد إتمام الدراسة بهذه المدرسة كان فيه بائساً لأنه عاد إلى قريته واضطر أن يعلم التلاميذ في مدرسة أبيه القروية القراءة والكتابة . ومَنْ أشد بؤساً من معلم لم يُخلق لمهنة التدريس ؟ إلا أنه كان صاحب ذمة فأخلص للعمل الذي ينال عليه أجراً لكنه لا تكاد تنقضي ساعات التدريس حتى كان يهرع إلى داره ويخلو بنفسه في غرفته

وقتاً طويلا منكباً على عمله الخاص ملقياً عن نفسه كل حمل خارجي؛ وشوبير الشاب النابغ كان يحمل بين جنبيه عبقرية فذة فى فن الموسيقى وتفانياً وإخلاصاً فى ميدان الصداقة. هيأ لنفسه أصدقاء عديدين في فترة التعليم وأحاط به أصدقاؤه كما تحيط الهالة بالقمر وكثيراً ما خففوا عنه بؤسه ومتاعبه

ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة عند ما ألقي أول (أصواته) الموسيقية بالكنيسة وأعقب ذلك بتلحين قطعة أخرى؛ ثم أنشأ فرقة موسيقية تتكون منه رئيساً ومن أخيه عازفاً على الأرغن ومن موسيقى كان مدير مدرسة الترتيل التي تخرج هو فيها، ومن صديق يغني الأدوار الرئيسية. ونستطيع أن نتصور السرور والاعجاب اللذين لاقى بهما أبوه هذا العبقرى الصغير حتى لقد ابتاع له نوعاً من البيانو مشهوراً فى ذلك الوقت واستعان على ثمنه بما اقتصده مما حصل عليه بعرق جبينه طوال حياته

وأول فشل صادف شوبير كان وهو فى التاسعة عشرة من عمره عند ما أنشأت الحكومة مدرسة للموسيقى فيما جاور بلدته والتمس أن يقبل بها مدرساً بأجر إن كان واحداً وعشرين جنيها فقط فى العام الواحد إلا أنه كان يفضل كل ما عدا مهنة التدريس عليها. فلما لم يعين لهذا المركز يئس يأساً شديداً، ولكن الحياة عوضته عن ذلك خيراً، فإن صداقته الجديدة لشاب يدعى شوبار أدخلت فى نفسه انشراحاً وحبوراً وتحولت حياته إلى حياة جديدة

وترجع هذه الصداقة إلى سماع شوبار بشهرة فرانز الفنية من بيت سبون فقرر أن يزوره فى داره فلقيه بعد أن عاد من المدرسة القروية جالساً إلى مكتبه تتكدس حوله أكوام المخطوطات الموسيقيـة

رغب أبوه في هــذا الوقت فى أن يقوم ابنه بتعليم تلامذة مدرسته الأحرف الموسيقية، ونفذ الابن هــذه الرغبة إلى حين حتى نجح شوبار بإلحاحه عليه بالعودة معه إلى فينا فهجر التدريس ورجع معه حيث تقاسما العيش فرحاً معترفاً بجميل صديقه إذ بتمام الصداقة بينهما تقدم سير مصنفاته تقدماً سريعاً فى جو هذه الحرية الجديدة. ولكنه برغم ذلك لم تتقدم حالته المادية بسبب إسرافه وتبذيره وعدم انتظامه فى معاملة الناشرين. بل إن الحالة أدت به إلى أن يبيع أغانيه مرة بما يساوى أربعة قروش للأغنية الواحدة؛ إلا أنه خفف من هــذه الحالة كثيراً اشتراكه هو وأصدقاؤه فى العيش حتى أن القبعات والمعاطف كانت على الشيوع فيما بينهم جميعاً. وهذا النوع من الحياة وما كان يتخلله من فترات يقضيها فرانز مع أصدقائه فى الجبال المنارية بقى على هذا الأسلوب حتى آخر أيامه القصــيرة. ولذلك لا نعجب إذا كنا نراه يرفض بلباقة ما كان يُعرض عليه بين حين وآخر من وظائف العزف على الأرغن علماً منه أنه غير جدير بعمل يحتاج إلى الاستقرار والنظام

ولم يُسمع عنه أنه وهن يوماً أو تباطأ فى عمله الخاص، بل كان يجلس إليه فى الساعة التى يستيقظ فيها؛ بل إن حمى العمل إذا أصابته دفعته إلى الكتابة والقراءة فى الوقت الذى كان عليه أن يهجع فيه للنوم

وبرغم أن الحياة صدمته صدمات عنيفة لم تستطع أن تغير من خلائقه، فقد كان شوبير الطائش الغافل ذو الفكر المضطرب الخل الأعلى للصداقة، المحبوب من كل معارفه، المتواضع الذى لا يَعنيه من أمر الظهور شيء. أما قده فلم يكن جميلاً، وأما طلعته فلم تكن بهية، فهو فى كل أدوار حياته (فرانز شوبير الصغير ذو المنظار على عينيه)

ويحسن أن نعرف أنه ألف فرقة موسيقية قبل وفاته بعام واحد وافتتح بها صالة كانت تزدحم بالمتفرجين، وأصابه منها ربح يعادل اثنين وثلاثين جنيهاً، ولكنه أتى عليها سريعاً. ويدل على إسرافه أن باجانينى الموسيقى المشهور جاء إلى فينا ليطرب جمهورها لأول مرة فحجز شوبير لنفسه أغلى مقعد ليحظى بسماعه، ثم عاد فحجز مقعدين له ولصديقه ودفع هو أجرهما. وعلى هذا النمط من التبذير أضاع نصيبه فيما كان قد ربحه. لم يتزوج شوبير قط؛ وكان إذا

سئل في ذلك أجاب بأنه مخرج لموسيقاه

ومنذ بلوغه الثامنة عشرة بدأ يُخرج للعالم تصانيف كثيرة أدهشت كثرتها الموسيقي المدني فكتب في عام واحد ثماني روايات غنائية (أوبرات). وكان شديد الميل إلى الشعر يقرأ منه ما تقع عليه عيناه فيختار منه ما بَعُد غرضه وجَمُل معناه، ثم يلحنه فإذا به كنغمة عذبة من نغمات طير مغرد. ويحكى أنه عاد أصيل يوم أحد إلى داره من نزهة خلوية فقابل أحد أصدقائه في حديقة فندق القرية وأخذا يتسامران، وكان بيد صديقه مجلد لشكسبير يطالعه فانتزعه شوبير منه وتصفحه فوقع نظره على سطر معناه (أنصت واستمع إلى صوت القبرة) وتساءل (لِمَ لا يكون معي الآن ورق لكتابة الأحرف الموسيقية؟) وسرعان ما رسم له صاحبه خطوطاً مهيئاً له طلبته على قائمة حسابه بالفندق وعليها بين ضجة المكان وصخبه خط فرانز الأغنية المشهورة: «أنصت واستمع إلى صوت القبرة» ملحناً إياها. وفي المساء لحن أغنية أخرى من رواية أنطونيو وكليوباترا؛ وكذلك لحن الأغنية المحبوبة (من هي سلفيا؟) وكان في هذا الباب تياراً جارفاً لا يقف عند حد، فلا يقع تحت ناظريه شعر إلاّ لحنه. وقد قال شومان في ذلك: «إن كل ما لمسه شوبير كان يتحول إلى موسيقى» وقال ليسْت «يُعد شوبير أعرق شعراء العالم الموسيقيين» ووصفه كتاب سيرته «بأنه ملك كتاب الأغاني» وكلهم محقون في ذلك فإنه أخرج في حياته القصيرة ما يقرب من الستمائة أغنية

وحل وقت هجر فيه شوبير عمله وتركه نسياً منسياً فقد أرسل يوماً مقداراً من مخطوطات أغانيه الجديدة إلى صديق له؛ وحدث أن زاره بعد أسبوعين من ذلك الوقت وكان يعزف على البيانو مغنياً أغنية أعجب بها فرانز فسأله (لمن هذه الأغنية الجميلة؟) فأجابه: (إنها لك!)

وكان شديد الإعجاب بما كتبه ڤيمور كوبر يدلك على ذلك كتابه لصديقه شوبار: «صديقي شوبار إنني منذ أحد عشر يوماً لم أتذوق طعاماً ولا شراباً لأني طريح الفراش مريض .... فاشفق عليّ وأنا في هذه الحالة البائسة بزيارتك لي لتقرأ عليّ ما أنا غير مستطيعه. وقد كنت قرأت لكوبر «الجاسوس والدليل وطلائع الجيش» فإن كان لديك غير ذلك له فلتتفضل عليّ بإحضاره معك» (صديقك)

وكانت غرفته مزدحمة جداً بالمخطوطات المبعثرة هنا وهنالك، وذلك لأنه لا يكاد ينجز عملاً حتى يبدأ في غيره أغنية كان أو ترتيلة أو أوبرا أو غير ذلك مما لم يخلق شوبير إلا لها. ولن نستطيع أن نتصور الكثرة المطلقة التي كان يخلفها لنا لو أنه عاش أكثر من ذلك؛ إلا أن المنية وافته ولما يبلغ الواحد والثلاثين عاماً.

عبد الرحمن فهمي
بكالوريوس في الآداب



من أساطير الاغريق

٢ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

مساكين هؤلاء الآرجونوت ! (١)

لقد كانت رحلة شاقة مضطرمة بالمتاعب ، مليئة بالأشجان ، فى بحر لجى وأمواج كالظُّلل ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سَعالى (٢) وأغوال

لقد لقى الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أى رهق ... فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح ، نما أيكها واستطال ، وغلظت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق فى الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو ، فأوغلا ... وكانت الطريق ملتوية مُضلة ... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً ، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه ، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التى كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى فى سكون الغابة ... وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلا مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ... ثم ساعتان ... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا ؟ ترى ما الذى عوق هيلاس ؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا فى ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق ، وصدر رحب أخيلي ، ووجه تمتزج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق فى بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى ، ولا تحسه إلا قلوب الحسان ... وشفتان إن كانتا لرجل ، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ... وجبين متلألئ وضاح ، لمَّاح كإشراقة الشمس فى مولد الصباح ... تبارك الله ما كان أسْبى وما كان أصْبى ، وما كان أجمل هيلاس ! !

ذهب يملأ الجرة ... وما كاد ينثنى ليضرب بها الماء ، حتى رأته عرائسه الغيد ، الخُرّد الأماليد ، فشغفهن وامتلك قلوبهن، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله ، وينهلن من حسنه ، وليقسمن بسيد الأولمب ماهذا بشرا إن هذا إلا ملاك كريم !! واقتربن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقتربن أكثر ، ثم تأجج الهوى فى فؤاد إحداهن ، وهي أجملهن ، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها ، فهتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى المـاء

— ماذا بالله عليك يا عروس ؟

— تعيش معنا !

— أعيش معكن فى الماء وأنا بشر ؟

— لن تكون بشراً بعد اليوم ، بل تكون إلهاً كريماً

— وأنى لى هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمئ إلى جرعة من مائكن تشفي جُواده ؟

— ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ إذن هذا عقابه ! تعال ! سيمنحك الخلود سيد الأولمب !

وجذبنه إلى القاع ... ولكنه لم يغرق ... وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً ، ولايجوع ولا يظمأ !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى إذا انتهي إلى النبع ، ووجد الآثار هابطة إلى المـاء ، إلى غير عود ، صرخ صرخة

(١) المسافرون فى السفينة (آرجو)

(٢) جمع سعلاة أو سعلاء وهى الغول أو ساحرة الجن

تجاوبت أصداؤها فى أركان الغابة ، ثم جلس ساعة على حفافى المقبرة التى ابتلعت هيلاس ينشج ويبكى ... وأقسم لا يذوقن من مائها قطرة ، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو فى هذا السفر .. وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن ، وعاش حياته الطويلة المقاحة لا يفتأ يذكر هيلاس ، ولا يفتأ يبكى على هيلاس !

***

وأرست الآرجو فى شاطىء تراقيا ، ونزل جاسون فى نفر من رجاله يمتارون ، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فِنْيُوس ، شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة ... ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق ، لها جسم الطير وريشه ومخالبه ، ورأس الانسان ولؤمه وخُبثُ طباعه ... كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكي ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غذاءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك فى أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شىء ... حتى على الفتات ... ولم يكن يردها عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شىء مطلقاً ... فلقد كانت تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم ؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب ، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء

ودهش جاسون ، وذهب بالقصة إلى رفاقه الآرجونوت ، فتقدم إليه البطلان الضرغامتان ، ولدا بوريس ، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور ، فاما أن يتم لهما النصر عليها ، وإما أن تكون لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى فى نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذى هش لهما وبش ، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً ... فلما حان موعد الغداء ، جلس الملك وضيفاه — وكان جاسون قد عاد إلى السفينة — إلى المائدة . ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتدوّم ، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه بيدنيهما ، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوى فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يونانى مبين ... ثم فرت بقية الطير ... لكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كى يأمر بوقف الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً ، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة ... فقاسمته ملكة الطير ، فأشار إلى ولدى بوريس فأغمدا حساميهما ، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل فى شرذمة من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت إلى غير عود [1] ... وبرت قسمها ، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً . وشكر الملك لولدى بوريس ، وعرض أن يستوزرهما ، فرفضا شاكرين ، ليصحبا جاسون

***

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة فى عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهَارْبِزْ ؛ فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا ، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع فى أشعة الشمس كالذهب ؛ حتى إذا كان فوق الآرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل ألحقت بهم أذى كبيراً ... ولم تنفع معها سيوفهم ولا قسيهم شيئاً ، فاختبأت كل كوكبة منهم في قمرتها ، وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدث صوتاً تنزعج الطير منه ، وتفر مروّعة إلى غير عود ... ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا ، وفرت الطير ذاهلة ممزقة فى رحب السماء

***

وحاقت بهم كوارث أخرى لاحصر لها ... ثم اقتربوا من برزخ سِمْبِلْجِيدْز الذى ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل

---

(١) تعرف هذه الطيور فى الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروى أنها نفت نفسها فى جزيرة ستروفيد

غيره ... وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عُدْوتيه صخرة هائلة ، فما تزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيّرانه هباء عفاء كأن لم يَغْنَ من قبل ... وكأيّن من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فحطمتهم وعفت على آثارهم ... ولم يدر جاسون ماذا يصنع ، وجلس رفاقه يُقلّبون الأكف على ما أنفقوا فى مخاطرتهم هذه ، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعاتٍ وساعات وهما ترتطمان وتبتعدان ، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل فى الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتَقِيّةً من الصمم ... وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل ، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامةً بين الصخرتين حين تنفرجان ، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ، ثم يرى ، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ... ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، وكم كان عجبهم شديداً حين رأوها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشةً واحدة انُتزعت من ذنبها فصارت هباء تذره الهواء ! واستعدوا للمقامة ، وطفقوا يقيسون مسافة مابين البحرين فى البحر الذى هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتى أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق فى الجو ... وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع ، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة فى مثل البرهة التى قطعتها فيها حمامتهم الأولى ... ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا ، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة ، وأرواح ترتعد فَرَقاً من الموت فى أبدانها ، فرقت السفينة كما يمرق السهم عن سِيَةِ القوس ... واحربا !! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وإن حطمت الصخرتان سكانها ، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل ؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة ، حتى انسدحوا فى الفلك يلهثون ويتنفسون ، ويهنىء بعضهم بعضاً ...

***

وبلغوا كولخيس بعد عناء وبعد جهد ، ومَثَلوا بين يدى إيتيس ملكها الجبار ، فسلّم جاسون بسلام الملوك ، ثم سئل عن طلبته فقال :

— عزّ نصر مولاى ، لقد تجشمنا مشاق هذه السَّفْرة فى سبيل الفروة الذهبية التى يقتنيها ملك الملوك ، لأنه نُمى إلىّ أنها كانت من تراث آبائى ... ولا أدرى كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

— أىْ بنى ! أَبْق على شبابك الغض ، وجمالك الفينان ، وعلى شباب هذه النخبة أولى القوة والفتوة الذين معك ... ! أى فروة ذهبية يابنى تبتغي ؟ وتراث آبائك من ؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عينى ، وسلخه بين يدى ، وضحى باللحم والحوايا للآلهة ، ثم أهدي إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق ، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتى سمپلجيدر ؟! وفيم كل تلك المهاوى والمهالك ؟ عد يابنى إلى بلادك فهو خير لك ، وأبق على حياتك ، وانعم بحضن أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الأشجان والأحزان !

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك ، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ، قال له :

— « لك إذن ما طلبت يا بنى ، ولكن اسمع ، واصغ إلىّ ؛ إن أمامك مخاطر كنت أوثر ألا تلقى بنفسك فى تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غرتك الأمانى ، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بنى جلدتك ، فاذهب إذن ، وحاول ما استطعت أن تلجم عِجْلَىْ فلكان الهائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ، ويفتكان بكل من اقترب منهما ؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجُبُوب[1] التى تقدست باسم مارس ، فاذا فعلت فازرع ماحرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بانى طيبة ، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تُنبت جيلا من المَرَدَة مقنعين فى الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح ، فاذا قدرت عليهم فان عليك أن تقتل التنين الهائل الذى يحرس الفروة الذهبية ، فاذا فعلت ، ولا أحسبك تفعل ، فان الفروة لك ، كنزاً ليس كمثله كنز ، وذخيرة من الذهب

(١) الصلبة المتحجرة



أزمة الكتاب والثقافة العالمية

عقد أخيراً فى مدينة نيس فى جنوب فرنسا مؤتمر نظمته أكاديمية البحر الأبيض المتوسط برياسة رئيسها الكاتب الكبير جورج دوهامل للنظر فى مسألة ثقافية خطيرة هي أزمة « الكتاب » . وقد أجمع المؤتمرون وهم رهط من كبار المفكرين والكتاب من مختلف أمم البحر الأبيض على أن مسألة الكتاب هى مسألة الثقافة العالمية كلها ، وأنه لا يمكن أن تقوم بدون الكتاب أية ثقافة أو حضارة أو إنسانية أو سلام أو مثل عليا ؛ ولذلك رأوا أن يعرضوا إلى المسألة من ناحيتها الدولية والعالمية

وجرى البحث فى النقط والتفاصيل الآتية : هل يمكن أن تحل المجلات الدورية محل الكتاب ؟ وهل يمكن أن تحل الإذاعة اللاسلكية (الراديو) مكان الكتاب والمجلة معاً ؟ وهل يمكن أن يحل السينما مكان الكتاب والجريدة ؟ وهل يمكن أن تشترك وسائل الإذاعة مع الكتاب أم لا يمكن إلا أن تضربه ؟ وهل يمكن أن تستعمل هذه الوسائل بطريقة تتفق مع مصلحة التفكير والذهن الإنسانى ؟ وأخيراً هل يمكن أن يفيد تنظيم المكاتب العامة وإعارة الكتب بلا مقابل فى تهذيب القراء ، ويعاون فى حل أزمة الكتاب ؟

هذه النقط وجميع ما يتعلق بها كانت وما تزال موضع بحث المؤتمر أو محكمة الكتاب كما يسميه المسيو دوهامل

ولا ريب أن أزمة الكتاب والثقافة مسألة عالية وهى مسألة الحضارة كلها ؛ وقد بدأت هذه الأزمة منذ نهاية الحرب الكبرى إذ انصرفت الأذهان شيئاً فشيئاً عن الكتب القيمة وأغرقت الشعوب المختلفة بسيل من الآداب والكتب السطحية . ثم جاءت السينما الناطقة والراديو فزادت الأزمة حدة ، وطغت الصحافة من جانبها على الكتاب وأخذت بتنويع محتوياتها الأدبية والثقافية تصرف الأنظار عن الكتاب

وقد شعرنا فى مصر ، كما شعرت جميع الأمم المتمدنة بهذه الأزمة الثقافية الخطيرة ؛ ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نبحثها كما يبحثها غيرنا ، وأن نحاول معالجتها بنفس الوسائل والأساليب .

الابريز ليست تعدلها ذخيرة ؛ هذا إلى فخر يرفعك إلى عِليين ، وينقش اسمك فى لوحة الخلود إلى آخر الزمان ! »

وسمع جاسون ... وخفق قلبه ، ووجبت روحه وجيباً محزناً ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل ! !

ونصحه رفاقه أن ينكث ، وأشفقوا عليه أن يضحى بهم وبنفسه فى مثل هذه المهالك ؛ بيد أنه صمم على أن يلجم عجلىْ ڤلكان ، وأن يحرث بهما الأرض الجبوب ، وأن يزرع فيها أنياب التنين ، وأن يحارب المردة فاما هزمهم وإما غلبوه ، وأن يقتل التنين الذى يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها ، وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر ، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه فى شجاعة مُدَّعاة ، وفتوة مُفتراة ، فاذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن ، وأسلم نفسه للتفكير العميق ... ثم استوحى عصاه السحرية فقالت له إنه ينبغي عليه أن يأتي ابنة الملك . الأميرة ميديا ، فانها مشغوفة به حباً منذ رأته يحدث أباها ... وأنها تكاد تجن به جنوناً

— وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة ؟

— اتصل باحدى عجائز كولخيس تقض حاجتك !

— ومتى ألقاها وأين ؟

— يا لك من فتى ؟ ! ألم تسمع من يقول : وكم لظلام الليل عندى من يد ؟ إلقها في جنح الليل ، ولتكن له يد عندك ، والقها فى حديقة قصر أبيها الملك !

« التتمة فى العدد المقبل »

دريني خشبة

دانونزيو في رياسة الأكاديمية الإيطالية

من أنباء رومة الأخيرة أن الكاتب والشاعر الإيطالي الأشهر جبرائيلي دانونزيو قد عين رئيساً للأكاديمية الإيطالية الملوكية. وقد علقت الصحف الإيطالية والخارجية على هذا التعيين بالاستحسان، وقالت إن الدوتشي (موسوليني) بإسناده هذا المنصب لأعظم كاتب إيطالي في العصر الحديث قد أسدى خدمة جليلة للثقافة الإيطالية. على أنه يلاحظ أن هذا الاختيار لا يرجع فقط إلى خلال الشاعر الأدبية، ولكنه يرجع أيضاً إلى ماضيه الوطني؛ فلم يكن دانونزيو شاعراً وكاتباً عظيماً فقط، بل كان وطنياً وجندياً عظيماً أيضاً؛ وهو اليوم شيخ في الرابعة والسبعين من عمره. وقد بزغ مجده منذ خمسين عاماً كشاعر موهوب إذ نشر مجموعة أولى من قصائده؛ ثم توالت بعد ذلك كتبه بين منثور ومنظوم وقصص ونقد. ومنذ أوائل هذا القرن يتبوأ دانونزيو ذروة الشعر والكتابة في إيطاليا الجديدة. وفي إبان الحرب الكبرى كان دانونزيو في فرنسا، وكان يدعو في كتبه وقصائده إلى انضمام إيطاليا إلى الحلفاء. ولما دخلت إيطاليا الحربُ انتظم دانونزيو في الجيش ضابطاً في المدفعية، وفقد إحدى عينيه في خدمة الطيران. وفي نهاية الحرب حدث خلاف بين إيطاليا ويوجوسلافيا على ملكية ثغر فيومي، وانتهى النزاع بأن وافقت إيطاليا على تركه ليوجوسلافيا، ولكن دانونزيو لم يرتض هذا الحل وزحف على فيومي على رأس ألف من المتطوعين واحتل الثغر عنوة وأعلن ضمه إلى إيطاليا. وهنالك زاره موسوليني الصحفي يومئذ وأعجب به وبخلاله الوطنية والعسكرية العالية. ولما قام الحكم الفاشستي وتبوأ موسوليني ذروة النفوذ والسلطان حدث جفاء بين الرجلين في البداية، ولكنه لم يلبث أن زال وأحيط الشاعر الكبير بكل مظاهر التكريم، وأنعم عليه بلقب الأمارة في سنة ١٩٢٥، وهو يتبوأ اليوم رياسة الأكاديمية الإيطالية ومن ورائه ذلك الماضي الحافل في الشعر والأدب والوطنية والحرب

الشرائط المصورة في خدمة المكتبات

في حين أن أنصار الكتاب يرون أن الأفلام الناطقة من العناصر الضارة التي تؤثر في رواج الكتب، يرى بالعكس خبراء المكتبات أن الأفلام الناطقة يمكن استخدامها بنجاح في خدمة المكتبات العامة وفي تذليل مهامها. هذا ما رآه المندوبون في مؤتمر عقد أخيراً في كامبردج للنظر في شئون المكتبات وتنظيمها. وقد صرح الأستاذ، واطسون دافيس أحد المندوبين الأمريكيين أنه بمرور الزمن يمكن أن تستخدم هذه الأفلام في حفظ نفائس أعظم المجموعات العالمية، وبذلك تسهل مهمة تبادلها بين مختلف العواصم والمكتبات: بل يمكن بهذه الوسيلة أن ننقل نفائس مكتبة بأسرها من قارة إلى أخرى مدونة في بعض هذه الأفلام الناطقة

وذكر الأستاذ هتون من خبراء المتحف البريطاني أن إدارة المتحف ستقوم بإخراج أفلام ناطقة من جميع الكتب الانكليزية التي ظهرت قبل سنة ١٥٥٠م، ثم ترسل نسخاً منها إلى الولايات المتحدة (أمريكا). وقد صار من الميسور الآن أن تصور الصفحة الكبيرة في حجم لا يزيد على طابع البوستة، وبذلك يمكن تصوير آلاف من الكتب في أحجام صغيرة، ثم يمكن بعد ذلك لكل راغب أن يحصل بواسطة الجهازات المكبرة على صور منها في حجمها الطبيعي، أو يمكن عرضها على ستار السينما

الأدب الأردي

اللغة الأردية هي لغة مسلمي الهند، وهي من الفصيلة الفارسية، وتكتب بالحروف العربية؛ ولها أدب خاص يتأثر أشد التأثر بالآداب الفارسية والعربية. وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الأدب الأردي بقلم الدكتور موهان سنغ الأستاذ بجامعة لاهور تحت عنوان Urdu Literature، وهو بحث جامع في تاريخ اللغة الأوردية وآدابها، من النثر والشعر والقصص، والعوامل التي اشتركت في تطورها، ومدى تأثرها بالأدب الانكليزي والأدب الهندي القديم، وما كان للقرآن الكريم والآداب العربية من أثر في تطور الثقافة الأردية وقد تناول الدكتور سنغ بحثه بأسلوب جديد يسبغ على مؤلفه قيمة خاصة، بحيث تقرأ فيه تاريخ الأدب الأردي كما تقرأ تاريخ الأدب الانكليزي أو الفرنسي

بول فاليري أستاذ في الكوليج دي فرانس

أصدرت الحكومة الفرنسية أخيراً مرسوماً بتعيين الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية بول فاليري أستاذاً للشعر في معهد «الكوليج دي فرانس» وبذلك يتبوأ الشاعر الكبير فوق مكانته في عالم الشعر والأدب مركزاً رسمياً خطيراً يستطيع أن يبث منه إلى الشباب نظرياته الطريفة في الشعر الفرنسي

هذه بضاعتنا ردت إلينا

لما قرأت فى (الرسالة الغراء) مقالة (أخبار أبي تمام للصولى) تذكرت بيتاً لهذا الشاعر العظيم « وكم بيت بديوان [١] » سلبه إياه أبو عبيد البكرى ، ووهبه للمتنى ...

ومقسم يعطى المشيرةَ حقّها ومُـغذمِرٍ لحقوقها هضّامها [٢]

ورأيت أن يُردّ اليوم الحق إلى أهله . وهذه قصة الذهب والهبة :

جاء فى كتاب (اللآلى فى شرح أمالى القالى) أو سمط اللآلى (الجزء الأول . الصفحة ٢١٧) :

« وقال المتنبى فى النسيب :

إنسيّـةُ الأنسان إن هيَ حُصّـلت

جنيّـةُ الأبوين ما لم تُنسبِ »

وقال محقق الكتاب ومنقحه الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى الحاشية : « لا يوجد البيت فى شيء من نسخ شعره (أي شعر المتنبى) وقد جمع العاجز — يعنى الأستاذ نفسه — زيادات ديوانه ؛ ولعله وهم (أي البكرى) فى حمله البيت عليه »

قلت : قوله (العاجز) هو من تواضع العلماء ، وقد أظهر فى (اللآلى وسمطه) كل قوة ، وأخبر فضله أن ليس بعد هذا التحقيق تحقيق « ليس وراء عبادان قرية [٣] » . ومن خصائص الأستاذ الميمنى أنه يعرف جميع المواطن التى ورد فيها بيت من أبيات (اللآلى) ويذكرها كلها قلت أو كثرت

وهذا البيت الذى عزاه البكرى إلى المتنبى ، وأنكر الأستاذ عزوته ، ولم يدلنا على صاحبه — على اتساع ذاك الاطلاع — هو لأبى تمام فى قصيدة مطلعها :

أحسِنْ بأيام العقيق وأطيب والعيش فى أطرافهن المعجب

(١) أبو العلاء :

والأنس مثل نظام الشعر كم رجل بالجيش يفدى ، وكم بيت بديوان

(٢) لبيد العامرى . (المغذمر) الذى يأخذ من هذا ، ويعطي هذا ، ويدع هذا

(٣) أورده الميدانى فى أمثال المولدين فى (القاموس) . عبادان جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة ساكبتين فى بحر فارس

ورواية صدر البيت (المسلوب) فى الديوان هو (أنسية إن حصلت أنسابها) وقبله :

وإذا رنت خلت الظباء ولدنها ربعية واسترضعت فى الربرب [١]

فاقرأ اليوم يا حبيب : « هَـذِهِ بضاعتُـنا رُدَّتْ إلينا » فى (اللآلى) [٢]

« الاسكندرية » (***)

وفاة المؤرخ التركى أحمد رفيق

روعت الأمة التركية فى غضون هذا الشهر بوفاة عالمها المؤرخ الجليل احمد رفيق ، ولقد كانت وفاته فاجعة كبرى أصابت الأمة التركية فى شعرها وأدبها وتاريخها

بدأ رفيق حياته العامة بالانضمام إلى الجيش ، ثم أكب على الدراسات العلمية الدقيقة وراح يبذل قصاراه فى المطالعة والبحث والاستقصاء فى العلوم التاريخية إلى أن وهنت قواه فخرج من السلك العسكرى وكان خروجه هذا سبباً فى انغماره فى مضمار الدراسة العنيفة ، والمطالعة المضنية ، فأكب على دراسة التاريخ وهي الناحية التى كان يميل إليها بالفطرة فدرسها درساً وافياً وشرع فى تأليف مؤلفاته القيمة التي تزيد على الاثنى عشر مجلداً ، وجميعها من أروع الكتب التاريخية التى نالت تقدير كبار أساتذة التاريخ فى العالم

مارس أحمد رفيق الشعر والأدب فألّف ديواناً فى الشعر ، وأنشأ مقالات عديدة فى الأدب ، فكان توفيقه فى هذين الفنيين ضئيلاً بالنسبة إلى ما أصابه فى التاريخ من نجاح باهر ومكانة سامية

وأسلوب الرفيق التاريخى يمتاز من غيره بالسهولة وتبسيط المعقد من التاريخ بطريقة لا تجعل الملل يتسرب إلى القارىء

ويحزننا أن نقول إن ذلك المؤلف الكبير على رغم الخدمات المظيمة التى أسداها إلى أمته كان فى أواخر أيامه فريسة للحرمان والفاقة

(١) ربعى نتج في الربيع نسب على غير القياس ، وربعى كل شيء أوله (اللسان) الربرب . الجماعة من المها (ياظبية أشبه شيء بالمها)

(٢) كتاب بارع محكم محقق ، جزءان ، أكثر من ألف صفحة ، نشرته ذات الفضائل والمكارم والأيادى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر



كان ما كان

تأليف الأستاذ مخائيل نعيمه

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

كان ما كان ... ألا إنها كلمة سحرية تفيض بالذكريات والأحلام ، وتفتح على النفس أفاقا من الماضى ، وما أحب الماضى إلى النفس وإن كان كله الشقاء ! ولعل هذا المعنى هو الذى لحظه الأديب اللبنانى الأستاذ مخائيل نعيمه فى وضع هذه الكلمة عنواناً لمجموعة من قصصه ، وهى مجموعة تشتمل على ست قصص وفصل من رواية مسرحية اسمها « جمعية الموتى » كان الأستاذ قد كتبها عن المجاعة اللبنانية إبان الحرب . ونعيمه لاشك أديب قصاص ، عنده طبيعة فنية ، وله فى فنه ميزات ومواهب ، وهو فى قصصه يحيا حياة روحية نبيلة كلها صفاء وتصوف ، فعنده « أن الفطرة حقيقة صافية ، والمدنيـة رياء موشى » وهو « يحب الروح النظيفة فى جسم قذر ، عن الروح القذرة فى جسم نظيف » ومن رأيه « أن الأرض روح طاهرة فى جسم طاهر لاتساد ولاتستعبد ، فهى ميزان العدل الإلٰهى ، ولذلك لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة » ، وإنه لينظر إلى سبل الحياة فى الشرق والغرب ، فيرى « الشرق يسير إلى المحجة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وأفكاره ، وأعنته إيمانه وتقاليده المتصلة بالآزال ، بينما الغرب يسير فى مركبة روحها البخار أو الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، وأعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه » . ومع أن الغرب يلتفت إلى الشرق هازئاً ، والشرق يبهره ما يرى فيقر للغرب بالمجد ، فان نعيمة يرفع الشرق فى روحانيته الصافية ، على الغرب فى ماديته الملوثة ؛ وهو يأسف على الشرق إذ « يطرح مركبته ، ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمركبة جاره » ، لأن الحيـاة المادية فى الواقع « حياة مقنعة » كلها زحمة باطلة ، وجلبة فارغة ، وما الانسان فى وسط هذه الجلبة إلا « كالهر يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنه دمه ... »

ونعيمة أيضاً رجل باحث ، يعاني النقد والدراسة التحليلية ، وله « سياحات فى ظواهر الحياة وبواطنها » . ولا شك أن القصاص فى حاجة إلى مواهب الباحث ، من دقة الملاحظة ، وصواب الفكر ، وحسن التقدير ؛ ولكن ليس من الصواب أن يفنى شخص القصاص فى شخص الباحث ، حتى لا يضعف النهج القصصى فى القصة كما يلاحظ فى بعض قصص نعيمة ؛ فهو يهتم بأن يقول لك كل شيء فى نفسه ، ويعنيه كثيراً أن يشرح كل شيء يعترضه ؛ ومن ثم فهو يستطرد كثيراً ويخرج بك إلى كل ناحية تتصل بالحديث ، ومن ثم كانت القصة عنده فكرة قويمة ، وحكمة عالية ، وبحثاً اجتماعياً كاملا ، ولكنها ليست على ما يجب من الاستواء الفني والاتساق القصصى ، فأنت تقرأها وكأنك تقرأ مقالا ممتعاً ، أو بحثاً ضافياً ؛ ولقد تعمد إلى بعض أجزائها بالحذف فما يضير ذلك ، ولا هو يقطع صلة الحوادث فى القصة ؛ ولقد تجده يطيل كثيراً فى التحليل النفسي للأشخاص إطالة قد تتحملها القصة الطويلة ، ولكنها لاتليق بالقصة القصيرة . وإليك مثلاً : تلك القصة التي أسماها «ساعة الكوكو» والتى صدر بها الكتاب ، فان نعيمة قد حشاها بكثير من الحكم والمواعظ ، ونقل فيها كلاماً طويلا من كلام « بو معروف » وعرض فيها لشخصية « خطار » فحللها تحليلا

نفسانياً دقيقاً صور فيه كل شيء حتى الخواطر والأحاسيس ، وساق كلاماً عن الشرق والغرب ، والمادية والروحية ، ولكنه ساق كل ذلك مساقاً إن اغتبط به فكر الباحث فلن يرتضيه تقدير القصاص ، لأن القصة ليست خطاباً يلقى أو حكاية تروى ، ولكنها حدود مرسومة ، وأبعاد مقدرة ، وحبكة قوية فى البدء والنهاية ، وخطة هى طبيعة الحياة ومظهر الواقع ؛ وبالجملة فهى قطعة فنية مستوية لا استطراد فيها ولا زوغان . ولو أن نعيمة راعى ذلك فى قصصه لكان من غير شك سباق الحلبة وحامل لواء القوم فى القصة

أما أسلوب المؤلف فأسلوب سهل مرسل ، يريده نعيمة على أن يكون أداة لإفهام القارىء فحسب . ولقد يهمل حق البيان واللغة في بعض الأحيان ، فيقدم حيث يجب التأخير ، ويحذف فى مقام الذكر ، ويرجع بالضمير إلى غير ما هو له ، كأن يقول : « ولا يزال نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور » يريد ولا يزال نحو المائة منهم وراء السور ينتظرون الدخول . وكأن يقول : « لكنهم يبكون كلاماً ، وينوحون من قلوب ضاحكة وأجواف مفعمة » يريد أن بكاءهم لا حزن فيه وأنهم ينوحون وأجوافهم ممتلئة « بالسرور » ، ولكن العبارة لا تفى بما يريد ، لما فى صدرها من الخطأ اللغوى ، ولما في عجزها من القصور . وكأن يقول فى بعض تشبيهاته : « فكأن دماغى قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية فى هاوية تلبدت بدخان » وهذا تشبيه لا يسوغه الذوق البيانى

على أننا لو تجاوزنا عن مثل هـذا فما يصح أن نتجاوز عن حق اللغة والنحو فى مثل قوله : « ويلتقى الأخ أخاه » وقوله : « لنشاركه بالفرح » وقوله : « ولا يلعب بالقمار » وقوله : « كانت تحوى على صفات » وقوله : « فلنباشر يفحصهم » وقوله : « وذقنك المستطيلة وأحناكك النافرة » إلى آخر ما هنالك من التعابير التى لا أحسب أن نعيمة الناقد يرضاها من غيره . وهل من اللائق أن تكون الفكرة من الذهب وأن يكون لبوسها من الخشب ؟ !

ثم هنالك هنوات طفيفة كأن يقول (ص ٥٧) واختلت مع جميل فى مخدعها ، وسياق الكلام يقضي أنها اختلت مع عزيز وما أحسب ذلك إلا سبق قلم

وفى قصة الكوكو (ص ٨) يقول : فى حقيبتى رسالة تسلمتها فى أيار سنة ١٩٢٢ والذى فى ذيل القصة أنها كتبت بتاريخ سنة ١٩١٥ ولعل هذا من تحريف الطابع

أما بعد ، فقد كانت فترات طيبة تلك التى قضيتها في قراءة « كان ما كان » ، وما أبالغ إذا قلت إن نعيمة قد غمرني بفيض من الفكرة « الروحية البحتة » التى يخدمها ويخلص لها فى قصصه . وإنها لفكرة سامية ما أحوج الناس إليها وقد جرفتهم أوضار المادة الفاسدة ، ولكن من لها بأمثال نعيمة فى روحانيته وإخلاصه ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧